وليم سارويان

مختارات قصصية (2)

ابن عمّي ديكران

*- الهيئة الاستشارية لدار الصداقة:

مختارات قصصية (2)

وليم ساارويان



ابن عمي ديكران

ترجمة : حسني سيد لبيب

دار الصداقة - حلب 1994

ابـــن عـمّـــي ديـكــران
الطبعة الأولى 1994
(1000) ألف نسخة

الناشر : دار الصداقة
للترجمة والنشر والتوزيع
سورية - حلب ص.ب 11811

التنضيد الألكتروني : دار الحاسوب للطباعة - حلـب - بناية الأزبكية.

* الخطوط وتصميم الغلاف : رافـد فيّـاض.
* لوحـة الغـلاف : آكـوب آكـوبيـان.

المباراة الكبرى لِـلُعْبَـــةِ
(القَـطَّــة)

روزي ماهوني، بنت أيرلندية صغيرة شقيَّة من عامة الناس، ولسوء تقديرها في إحكام الأهداف، أو لابتعادها عن الحسّ الفطري إلى الفوضى، فقد تعدّد جيرانها من الروس والإيطاليين واليونانيين ببلدتي، عبْرَ مسالك جنوبي المحيط الهادىء، وفي كل أرجاء شارع (ج).

كانت ترتدي (بلوفر) برقبةٍ ضيقة، ولونه احمر عادةً. ووالدها (كول) يعمل بنّاء طوب ويُدْمِن الشراب. وأمها تُدعى ماري. اعتادت ماري ماهوني الذهاب إلى الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في (كيرني بوليفارد)، كلَّ يوم أحد، حيث لاتُوجد كنيسة أيرلندية في أيِّ منطقة مجاورة. وبذلك بَدَت الأسرةُ سعيدةً.

كَبُرَ أخوة روزي الثلاثة وسافروا بحراً. وتزوجت أختها. كانت روزي آخر العنقود. بدأ احتكاكها بالناس عندما بلغ والدها سن الستين وأمها بداية الخمسينات. لهذا، كانت من ذلك النوع المُغْرَم -نوعاً ما- بالبحث والتحصيل.

ولروزي تعامل محدود مع الفتيات، وتتحاشى الاختلاط بهنَّ بقدر الإمكان، ولها تعامل أقلُّ مع الفِتْيَة، وإن رأت أنه لايُستَحْسَنُ الابتعاد عنهم. هذا ماتراه. وهي تحرص على مشاركة الفِتْيَة في كلِّ شيء يقومون به. تتمتع بحضور دائم. ويُعْزى لها دائماً فَضْلُ السَبَق في أية فكرةٍ سواءً كانت جريئة أم خائبة. ويتحرَّج كلُّ فردٍ لِمَا يجدها عليه من حضورٍ مستمر، وان كان من غير المفيد أن تحاول تَتَبُّعَهَا بعيداً، فان ذلك يعني صراعاً مستميتاً من جانبها.

وإذا لم تَفُزْ على كلّ مَنْ تُنازله، فعلى الأقل ينتهي كلُّ نِزَالٍ بتعادلٍ مُشَرِّف، مع مَيْلٍ طفيفٍ لصالح روزي. وهي تُحافظ على رِقَّة الفتاة، ولا تصرخ إذا أُصِيْبَتْ. وقد ناهضت النموذج التقليدي، واستفادت من كلِّ نقطة ضعف.ومن المؤلم جداً أن يحدث أذى من روزي، لهذا يقرر كلُّ فتى بعد أن يفكر في محاولة تَتَبُّعِهَا بألا يُعَاوِدَ الكَرَّة مرة أخرى.

لافائدة. هي لم تقرر الذهاب بعد. يبدو أنها لاتميل لأيٍ من الفِتْيَة بالتحديد، لكن يستميلها التفكير بعقلها حين تتعرض لشقاوتهم، وترغب في اللعب مع أيِّ فريق ينظمونه. أنها لاعبة (بيس بول) ممتازة، وتُعَدُّ أفضلَ من أيِّ زميل آخر تحت أيِّ مستوى، منذ أصبحتْ راميةَ كرةٍ مُدَرَّبة. انها جناح سوذٍ، أيضاً، ونجحت في تسديد كرة من الجهة اليسرى، فأحدث ضرب الكرة بقفاز اليد صوتاً طفيفاً.

تتمتع قدماها بسرعة غير عادية وقد لعبت مباراة رائعة في الهوكي. بَيْد أنها في الأمور التافهة قد تُصادف الحظَّ العاثر بين الناس.

وفي المباراة، ابتكرنا اسم (الحصان) واعتدنا أن نُنَاديها به، حيث كانت تُجيد ركوب الحصان كما تُصِرُّ على اتباع قواعد اللعبة. وكانت تُصِرُّ

على أن تُؤدِّي وضعَ الحصان عندما يأتي دورها في هذا. مما يُرْبِكُ زميلها الذي يُلاعبها، حيث أنه ليس من اللائق لفتى أن يعبر من فوق ظهر فتاة. كما أنها لاعبة كرة قدم ممتازة.

إنها، فعلاً، تقف على قدم المساواة مع غيرها من الفتية زملاء اللعب، وأكثر تفوقاً من العديد منهم.

لاسيما أنها زاملتهم ثلاث سنوات وهذه المدة جعلت كلَّ فرد يُوقن أنها جاءت إليهم لتبقىٰ، وهي مُصِرّة على أن تُواصِلَ معهم.

وما فعلته أيضاً، حتىٰ بعد قدوم فتى يُدْعىٰ (رِكْس فولجر)، من مكانٍ جنوبي (تكساس). والفتىٰ رِكْس هذا كان قائداً بالفِطْرَة منذ ولادته ووَضَحَ للجميع أنه إذا لم يكن رِكْس هو قائد الفريق، فإنه سيكون بالقرب من القائد. وفَعَلَ ذلك بدون الإحساس بأيِّ ضعف، ولكن بكبرياءٍ وطموح.

وفي الواقع، لم يستطع أحد أن يتمكن بأدائه البارع أن يكون أفضل من رِكْس. وحَظِيَ باستياء كلِّ شخصٍ لنفس الأسباب.

ذات شتاء، بدأ أولاد المنطقة يتبارون في لعبةٍ أصبحت شعبية، علىٰ الجانب الآخر من الطريق، مروراً بحي شعبي مجاورٍ للبلدة: انها لعبة (النَطَّة). وتتلخَّص فكرة اللعبة - التي شارك فيها بعض الفتية - في أن ينحني فتى ويقفز عليه كلُّ فتى آخر مُشَارِكٌ في اللعبة، ثم ينهض هذا الفتى ويبدأ القفز على ظهور جميع الفتية الآخرين، ثم ينحني مرة ثانية حتى يقوم جميع الفتية بالقفز على ظهره مرة ثانية، ويستمر اللعب بهذه الطريقة حتى يُدرك اللاعبين كلُّهم التعب. وربما لايحدث هذا، حتىٰ يتحرك آخر لاعِبَيْن إلى مسافة ثلاثة أو أربعة أميال، بينما يمشي باقي اللاعبين هذه المسافة وهم يراقبون ويراهنون.

كانت روزي تُشارك دائما، بالطبع، في هذه اللعبة. وكانت آخر من يترك اللعبة أيضاً. وهي الشخص الوحيد في المجموعة الذي لم يُنافسه ركّس فولجر،أو يتفوق عليه.

لهذا، أحسَّ أنه أُهين كثيراً جداً. ولكونها أصبحت أحد أعضاء الفريق، رأى أنه ينبغي له - بطريقة أو بأخرىٰ- أن يُثبِتَ تفوقه عليها.

وفي عطلة يوم صائف، أحتدَّ الحوار بين ركّس وروزي حتىٰ خلعت روزي (بلوفرها) ذا الياقة المقلوبة، وتهيّأت لنزاله. تناول ركّس لفافة دخان من جيبه وأشعلها، وتنفس الصعداء، وأفهمَ روزي أنه ليس من عادته الاحتكاك بالنساء- حيث أنه مستعد حتىٰ لملاكمة أمك - ومن ناحية أخرى، فاذا اهتمت روزي بأن تتبارىٰ معه في أيّ رياضة أخرىٰ، فانه يقول لها، أنه يكون سعيداً بأن ينافسها. كان ركّس هادئاً للغاية ومُحدثاً مُجاملاً، وكان مُتزناً، ليس عن غفلةٍ -بالطبع- لكنها صفاته حقاً. وكان بطبيعته رجلاً غير مُتَسَرِّع، أو مضطرب، أو منفعل.

لـذا، فقد تجادل ركّس و روزي حتىٰ وصلا إلى حل في لعبة (النَطّة) هذه. وذلك بالقفز فوق ظهر شخص آخر بسرعة، أيضاً، حتىٰ أن أول شيء عرفناه هو أن مجموعتنا كلّها قدخرجت إلى (ستيت هايواي) متجهة جنوباً إلى (فولر).

كان يوما قائظاً. وبدت روزي وركّس في أفضل وضع، وأن واحداً أقوىٰ من الآخر وأكثرَ عناداً. تحدثا طويلاً، وخاصة روزي التي تؤكد علىٰ أنه من الأفضل لها أن تسقط فاقدة الوعي، على أن تتخلىٰ عن مركزها لشخص أضحوكة مثل ركّس.

وأعلن أسفه لأن خصمه فتاة. وأنه من التكدير له أن تُضطَرَ فتاة إلى

إجهاد نفسها إلى حدّ الموت، لكنه أمرٌ في منتهى السوء. انه مُضْطَرّ إلى هذا، لهذا فهو مدفوع إليه. قفزا وقعدا القرفصاء، ثم قفزا وقعدا القرفصاء ، واتجهنا نحن إلى مزرعة (سام داي)، الواقعة في منتصف الطريق إلى (فولر). ولم يَبْدُ التعب على كلٍ من روزي وَرِكْس. ولم يَبْدُ عليهما ولو أعراضُ تعبٍ يُوشك أن يصيبهما، برغم أن كلاً منهما تصبَّب منه العرق بغزارة.

وكنا متأكدين، طبعاً، أن رِكْس لامحالة سيكسب المباراة. رغم أننا لم نضع في اعتبارنا أنه - في الواقع - شخص بسيط، بينما روزي ماكرة وذكية. وعرفت روزي كيف تُحَدِّد مواقعها. وتوصلت إلى طريقة تقفز بها فوق ظهر رِكْس فولجر فَتُضعِفُه. وبعد فترة - على بعدثلاثة أميال من (فولر) - لاحظنا أنها نزلت على رقبة رِكْس بدلاً من ظهره. وتألم من جَرّاء ذلك، طبعاً، واندفع الدم إلى راسه. وروزي نفسها قعدت القرفصاء بطريقة تجعل يَدَيْ رِكْس عاجزتين - من أيّ وضع- عن الاقتراب من رقبتها.

وبعد مدة قصيرة، لاحظنا أن رِكْس يضعف، وتقترب رأسه شيئاً فشيئاً من الأرض. وعلى بعد نصف ميل تقريباً من (فولر)، سمعنا رأس رِكْس وهي ترتطم بالأرض كلما قفزت روزي فوق ظهره. وحدثت ارتطامات صعبة بما تُحْدِثُهُ من ألم، لكن رِكْس لم يتوجع، كان يشمخ بكبرياء ولايشتكي.

ومن ناحية أخرى، استطاعت روزي التمكُّن من رجْلِهَا، واعطته درساً بكلِّ ما تملك. كانت تخبط رأسه بالأرض بكلِّ ما تملك من قوة، لأنها لا تتحمَّل صراعاً طويلاً ضدها، واذا لم تجعل حماسه يفتر، في الشمس الساخنة، خلال العشر دقائق التالية أو نحو ذلك، فسوف تسقط

مُنْهوكة القوىٰ، وتخسر المباراة.

وفجأة، خبطت روزي رأسَ رِكْس خبطة قوية، فنهض وهو مذهول، وغاضب جداً. إنها المرة الأولى التي نراه فيها يستشيط غضباً. واستغلَّت الفتاة حالته، إذ أنه لم يرتكب خطأ، ولم يكن يرغب فيه.

قرفصت روزي أمامه. نهض مترنحاً وتوقف لحظة، ثم سدَّد لروزي خبطة قوية جعلتها تنبطح. قفزت روزي واقفة، وقبَّلت رِكْس في فمه. وتدخلت المجموعة، مُحاولةً أن تضع حداً.

ومن المتفق عليه أن لعبة (النَطّة) ينبغي ألا تتحوَّل إلى عِراك. فالأمر لايستدعي. ولم يتبق على (فولر) سوىٰ خمس أو عشر دقائق. وقد حكمت المجموعة بأن رِكْس ليس له حقٌ في ضرب روزي، وأن روزي أنهت الأزمة بتقبيل فمه، واستمرت المباراة.

كانت روزي متعبة أشدَّ التعب، ومتألمة أشدَّ الألم، وكذلك ركس. وبدآ يقفزان ويُقرفصان مرة ثانية، ورأينا روزي تُطبق مرة أخرىٰ على رقبة رِكْس، فارتطمت رأسه بالأرض.

وبدا الموقف سيئاً إلى حدٍ ما، للفتىٰ القادم من (تكساس). وعجزنا عن فهم قدرته على تحمُّل عقابٍ متزايد. وشعرنا جميعاً أن رِكْس قد نال ما هو مفروض أن يناله. إلا أن كلَّ شخص شعر، في الوقت نفسه، باستياء لأن روزي، الفتاة ، أنابت عن كلٍ منا. وتلك هي النقطة التي أخطأنا فيها، وبالطبع. ما من أحد يُعتَدُّ به سوىٰ روزي التي استطاعت بتلك الطريقة المؤلمة للاذلال أن تُخيِّبَ أملَ فتى متفوقٍ وقويٍ جداً.

ومن المحتمل أن احساس الأنثىٰ قد ظهر عندها في الخمس سنوات الأخيرة، على الأقل، لدرجة أنها أصبحت من أجمل فتيات المدينة، فأقلعت

عن الأنشطة التي يُمارسها الصبيان، وتزوجت احد الشباب الأكثر ثراء في مدينة (كينجز)، وهو رجل جامعي يُدعىٰ، بقدر ما تحفظ الذاكرة، (والاس هادينجتون فينلاي السادس).

وعلى بُعْدِ أقلِّ من مائة ياردة من وسط (فولر)، أنهتْ روزي المهمة، بقدرٍ كبيرٍ من المهارة الجديرة بالاعجاب.

كان ذلك حيث انتهىٰ الجانب الترابي للطريق العام، وبدأ الشارع الرئيسي المُمَهَّد لمدينة (فولر). وقد مُهِّد هذا الشارع بالإسمنت، لا الإسفلت. فالأسفلت -مع تلك السخونة- أنعم جداً من أن يُستخدم، بينما يتحمل الإسمنت أعلىٰ درجة حرارة ممكنة. وأعتقد أن رِكْس فَطِنَ -عندما قرفص فوق الأسمنت الصلد- أن اللعبةَ أصبحت أصعب. لكنه كان شجاعاً حتي النهاية. فقرفص فوق الإسمنت الصَلْد وامتثل لمصيره.

واستعدَّت وراءه روزي ماهوني، لبذل جهدٍ مضاعف. وقد تعمَّدت -في القفزة التالية- أن تبذل فيها كلَّ طاقتها.

أطبقت على رقبة رِكْس فولجر بقوة قد تعادل طناً من الكتل الحجرية. فارتطمت رأسه على الأسمنت الصلد، وتمدَّد جسمه، وانتفضت ذراعاه ورجلاه.

وسرعان ما رجع إلى حالته. أمامه ست خطوات. قرفصت روزي وانتظرت. عَدَّ (جِمْ تِلِسْكو) حتىٰ عشرين، وهو الوقت المسموح به لكلِّ قفزة. ولم ينهض ركس خلال العَدّ.

انتهت المسابقة. وكانت روزي ماهوني هي الفائزة في المسابقة.

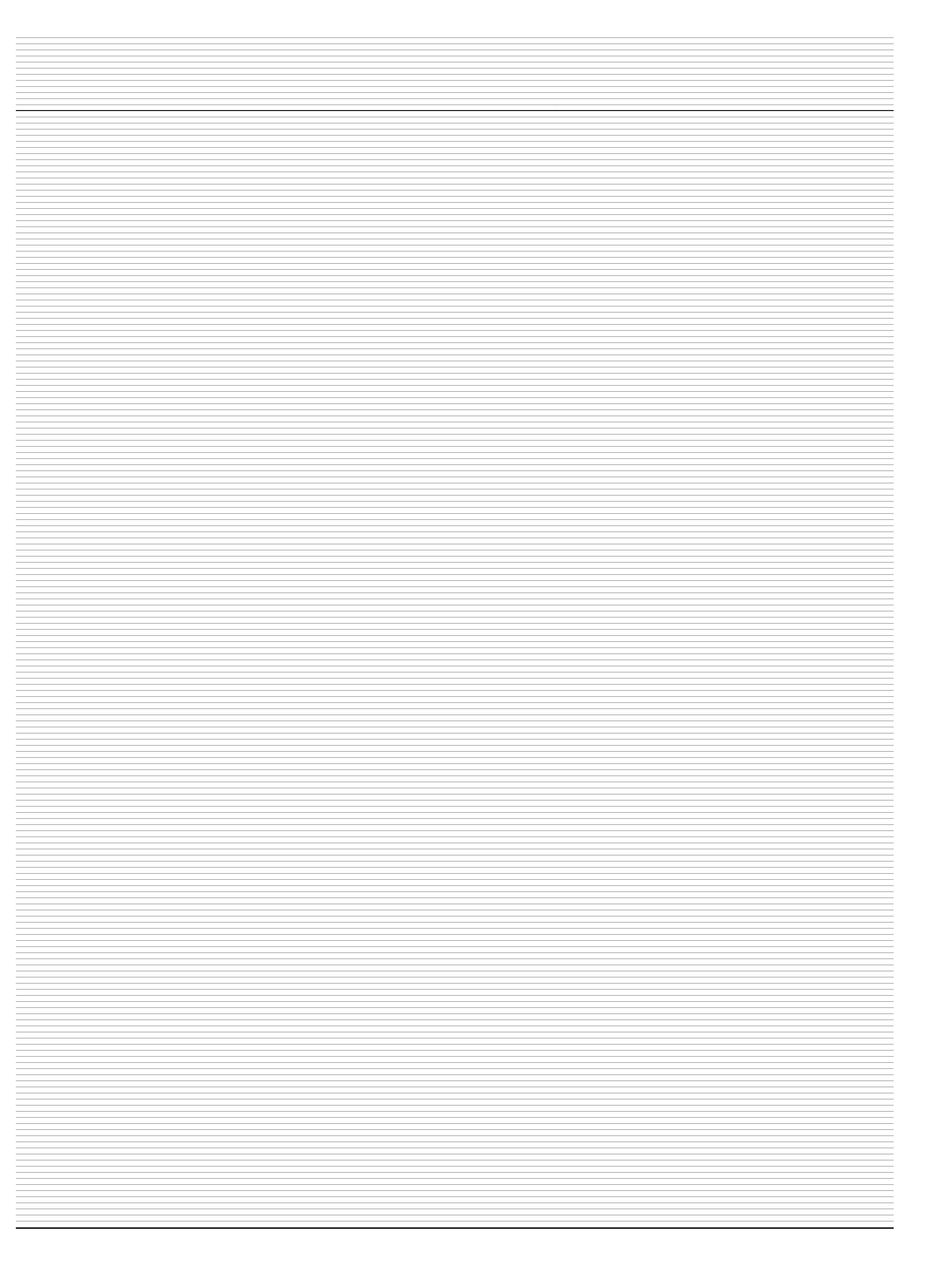
لم يَقْوَ رِكْس على النهوض اطلاقاً. فظلَّ حيث هو حتىٰ رفعه ستة أفرادٍ منَّا، وحملناه إلى حوضِ مياهٍ للخيل، ورششنا الماء على وجهه.

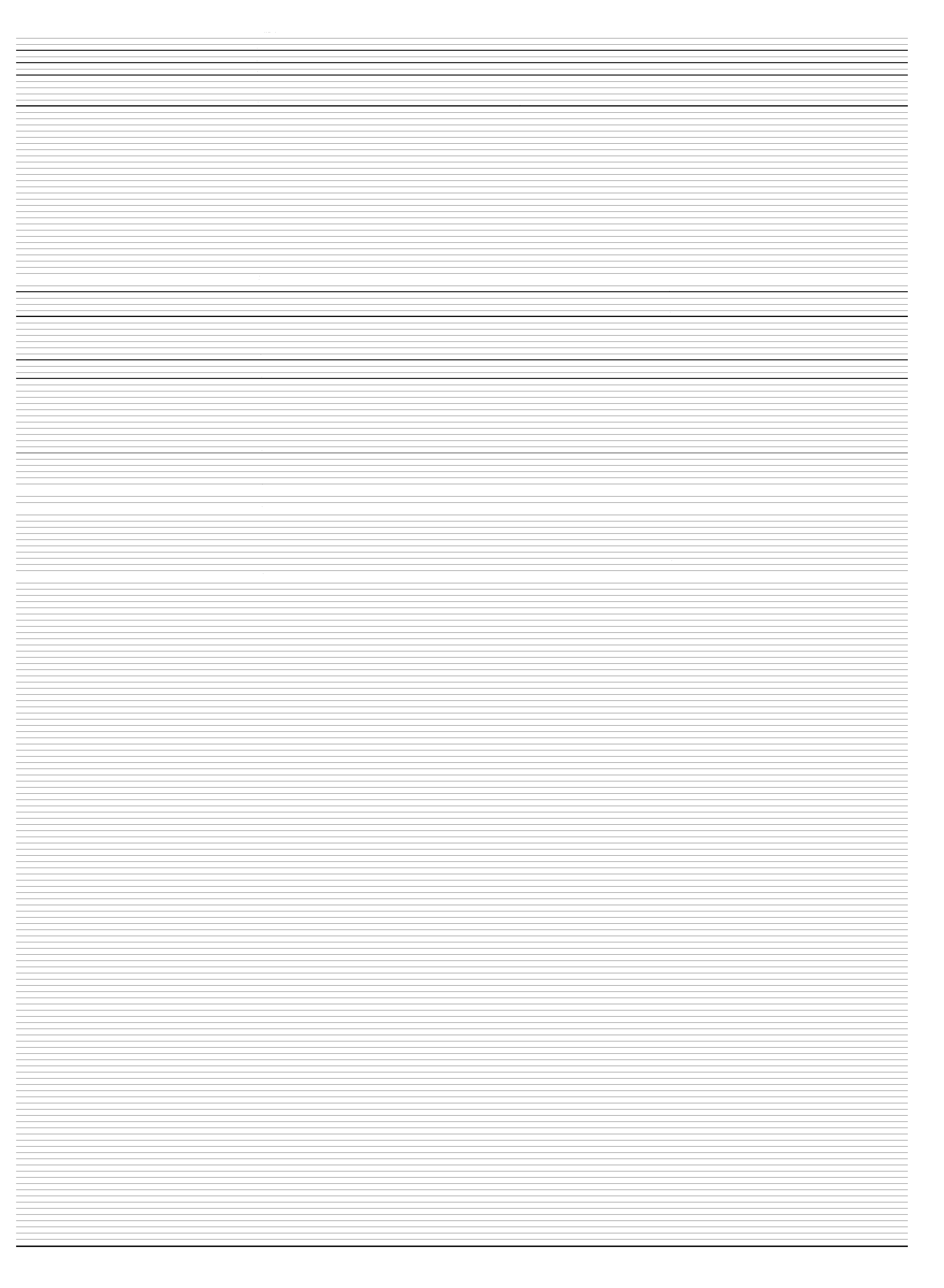
كان رِكْس شاباً مرتبكاً طوال طريق العودة، وشديدَ الانكسار. ولم يستطع أن يفهم شيئاً، وانما بدا فاقد الوعي، لاينطق. ومن حينٍ لآخر، نتخيَّله يريد أن يتحدث، وظننته تحدث، لكننا بعد ما تهيَّأنا لسماع ماينوي أن يقول، لم يَنْبس ببنتِ شَفَه. وأومأ باشارةٍ مأساوية جداً، جعلت الدموع تهطل من عيون الأحد عشر فرداً للفريق.

ومن ناحية أخرى، طفقت روزي ماهوني تتحدث مع الجميع طوال طريق العودة إلى البيت، وقالت كلَّ شيء.

أعتقد أن ما حدث صَنَعَ من رِكْس رجلاً أفضل. انساناً بمعنى الكلمة. وأصبح - بعد ماحدث - أطيبَ نفساً. ربما كان ذلك سبباً لضعف بصره فترة من الزمن. على أيِّ حال، فقد وقع لعدة أسابيع تحت تأثير الحلم. تجمدت نظرته عند شيءٍ غيرِ محدد، بعيداً في الطبيعة الخلاّبة، اتضح أنه يقضي نصف وقته دون أن يعرف إلى أين هو ذاهب؟ ولـمَ ؟،شارك في جزءٍ بسيطٍ من أنشطة الجماعة. وفي الشتاء التالي، آثر الابتعاد عن الجميع. وفي يوم ، ذهب إلى المدرسة وهو يرتدي النظارة، وبدا عليه الانكسار، والاحباط.

وفي ذلك الشتاء، توقفت روزي ماهوني أيضا عن الاشتراك مع الجماعة. وكانت لديها القدرة على الانسحاب في الوقت المناسب.





صَيْفِيَّة

الحصان الأبيض الجميل

ذات يومٍ من هاتيك الأيام الخوالي البهيجة، عندما كنتُ في التاسعة، وقد ازدان عالمي بكلِّ مظاهر الخُيَلاء، والحياة ماتزال حلماً مبهجاً وغامضاً أيضاً، أتىٰ ابن عمي مراد، المعروف بالكسل لكلِّ شخص يعرفه سواي، أتىٰ إلى منزلي في الرابعة صباحاً وأيقظني بخَبْطِهِ على نافذة غرفتي، قال:

- آرام ...

قفزتُ من علىٰ الفراش، ورنوتُ إلى خارج النافذة. لم أصدق ما رأيت.

لم يكن الوقت صباحاً، لكن نحن في فصل الصيف ولم يتبق على بزوغ النهار سوىٰ دقائق معدودات، ويغمرُ الضوءُ المكانَ، فأعرف بذلك أني لا أحلم. كان ابن عمي مراد يمتطي حصاناً أبيض جميلاً. مددتُ رأسي خارج النافذة، وفركتُ عيني. قال بالأرمنية:

- أجل، حصان. أنت لاتحلم، هيا بسرعة ان شئت الركوب.

أعرف عن ابن عمي مراد أنه يستمتع بحياته أكثر من غيره، وان كان هذا الفتىٰ الذي أراه لايُمكن تصديقه.

أولاً، كانت بواكير ذكرياتي عن الخيل، واشتياقي الأول هو ركوبها...

هذا هو الجانب البهيج.

ثانياً، نحن فقراء... وهذا هو الجانب الذي لايجعلني أُصدّق ما رأيت.

نحن فقراء. لانمتلك مالاً. وأحنىٰ الدهر على عشيرتنا كلّها. وكلُّ فَرْعٍ من عائلة جاروغلانيان يعيش في فقرٍ مُثيرٍ للضحك وشديدِ الغرابة. ولاأحد استطاع التوصل إلى المكان الذي نحصل منه على المال اللازم للطعام الذي نضعه في بطوننا، ولاحتىٰ لكبار السن في العائلة. والأهم من ذلك، واضافة إليه، فقد كنا نشتهر بالأمانة. وقد اشتهرنا بأمانتنا فيما يقرب من أحد عشر قرناً، حتىٰ عندما كنّا العائلة الأكثر ثراء، كنا نَوَدُّ أن يكون العالم هكذا. من شِيَمِنَا الكبرياء، قبلَ أيِّ شيء، وبعد ذلك الأمانة، ثم يشغل تفكيرنا الصوابُ والخطأ. ولاأحد منّا يرضىٰ أن نترك أحداً في المجتمع يحصل على مِيْزةٍ من السرقة.

وبالتالي، حتى لو أنني استطعتُ أن أرىٰ الحصان، بمنتهىٰ الروعة، حتى لو أنني استطعتُ أن أشمَّه، بمنتهىٰ الحب، حتى لو أنني استطعتُ أن أسمعه وهو يتنفس، بمنتهىٰ الاشتياق، فاني لا أكاد أُصَدّق أن للحصان عملاً يقوم به مع ابن عمي مراد أو معي أو مع أيِّ فردٍ من أفراد عائلتنا، نائماً كان أو مستيقظاً، لعلمي بأن ابن عمي مراد لايستطيع شراء حصان، وحيث أنه لايستطيع شراءه فانه حتماً سيسرقه، ورفضتُ أن أصدق أنه قد سرقه. لاأحد من عائلة جاروغلانيان كان لصاً.

حدقتُ أولاً في ابن عمي، ثم في الحصان. ثمة سكونٌ وقور وطبيعة لكلٍ منهما، تُبهجني من ناحية وتُخيفني من ناحية أخرى. قلت:

- يامراد .. من أين سرقتَ هذا الحصان؟

قال: - اقفز من النافذة، إن شئتَ الركوب.

اذن، فالأمر جَدّي. لقد سُرِقَ الحصان، وليس ثمَّة شكٌ في هذا. وحضر ليدعوني، سواءَ ركبتُ أم لا. حسناً فانه يبدو لي أن سرقة حصان لركوبه لاتتساوىٰ مع سرقة أيِّ شيء آخرِ قطُّ، كالمال (مثلاً).

لهذا السبب ، فطنتُ إلى أنه ربما لم يُسرق علىٰ الاطلاق. وإذا كنتُ مغرماً بالخيول مثل ابن عمي مراد، فان ذلك لايُعَدُّ سرقة. انه لايُعَدُّ سرقة حتى نقوم ببيعه، وأنا علىٰ يقين باستحالة ذلك. قلتُ:

- دعني ارتدي الثياب.

قال: - وهو كذلك، ولكن أسرع.

وأسرعتُ لارتداء الثياب. قفزتُ إلى الفناء من النافذة، قفزتُ من أعلىٰ فوق الحصان، ووراء ابن عمي مراد.

عشنا ذلك العام في (وولنَتْ أفينيو)، وبدأ الحصان يَخِبُّ .. الهواء نظيف جدير بأن نتنفسه. كان الحصان يعدو بطريقة مدهشة. وبدأ ابن عمي مراد، الذي يُعتبر من أكسل أفراد العائلة، بدأ يغني، أعني أنه بدأ يصرخ.

لكلِّ عائلةٍ عِرْقُ جنونٍ يستكين بداخلها، ويُعتبر ابن عمي مراد الامتداد الطبيعي لِعِرْقِ الجنون بعشيرتنا. وقبله كان عمنا خوسروف، وهو رجل ضخم برأسٍ قويةٍ ذات شعر أسود، ويمتلك أطول شارب بوادي (سان جواكين)، رجل غريب الأطوار، حاد الطبع، وله قدرة فائقة على الزعيق ، حتىٰ يمنع أيَّ شخص من التحدث. لم يكن ثمَّة ضَرَرٌ منه، ولايلفت اهتمام أحد.

هذا كلُّ مافي الأمر، ومامن حدثٍ يجعل أحداً يتحدَّث عنه، ذات مرة، كان

ابنه آراك يجري من أمام ثمانية أبنية متجهاً إلى محل الحلاق، حيث كان والده يُشذّب شاربه، وذلك ليُخبره أن النيران اشتعلت بمنزله. انتفض هذا الرجل، خوسروف، من على كرسيه وزعق:

- مايِنْ ضَرَر، لاشيء جدير بالاهتمام.

قال الحلاق: - لكن الولد يقول أن منزلك يشتعل.

حينئذ صرخ خوسروف:

- كفىٰ .. اني أقول: مايِنْ ضَرَر. هذا يكفي .

يُعتبر ابن عمي مراد الامتداد الطبيعي لهذا الرجل، برغم أن زوهراب والد مراد، كان عملياً فحسب. هذا هو حال عشيرتنا. رجل قُدّرَ له أن يكون لابنه بالدم واللحم، لكن هذا لايعني أنه والد يتفق مع روح ابنه. ان توزيع النواحي المختلفة لروح سلالتنا، كان من البداية توزيعاً هوائياً وجُزَافياً.

ركبنا، وغنّىٰ ابن عمي مراد. وعرف الجميع -على الأقل بَعْضُ جيراننا - أننا مازلنا متشبثين بالريف القديم ومتعلقين به. وتركنا الحصان يعدو على سَجِيَّتِهِ.

أخيراً، قال ابن عمي مراد: - انزل. أريد أن أركب وحدي.

قلت: - هل ستتركني أركب وحدي أيضاً؟

- يتوقف ذلك على الحصان. انزل.

- لن يُمانِعَ الحصانُ في الركوب.

قال: - سنرىٰ لاتنسَ أني أعامل الحصان بطريقة معينة.

- حسناً، فالطريقة التي تُعامل بها الحصان، أستطيع أن أعامله بها أيضاً.

قال: دعنا نأمل في هذا ... انزل.

قلت:- وهو كذلك، ولكنْ تذكَّر أنك ستدعني أحاول الركوب وحدي.

ونزلت، وخبط ابن عمي مراد الحصان بكعبيه، صائحاً:

- فازيرا، إجـر.

شبَّ الحصان على قائمتيه الخلفيتين، ونفخ هواءً من منخريه، وانطلق بسرعة جنونية، كنت مشتاقاً لها. ركض ابن عمي مراد بالحصان عبر حقل عشبٍ جاف، إلى ترعة ري، عابراً الترعة وهو راكب على الحصان، وعاد بعد خمس دقائق، وقد أصابه بلَـلٌ.

وطلعت الشمس. قلت: - جاء دوري الآن لأركب.

ونزل ابن عمي مراد من فوق الحصان: - اركب.

قفزتُ على ظهر الحصان، ومررتُ لفترة بأشد رهبةٍ يُمكن تخيُّلها. ولم يتحرك الحصان. قال ابن عمي مراد:

- اخبط عضلاته، علام الانتظار؟ ينبغي إعادته قبل أن يستيقظ وينتبه انسان.

وبدلاً من الجري عبر الحقول إلى ترعة الري، جرى الحصان إلى الطريق، حيث مزرعة ديكران حَلَبْيان، وشرع يقفز فوق سبع دوالٍ للعنب قبل أن أقع، وواصل جريه... جرى ابن عمي إلى الطريق، صاح:

- لستُ متضايقاً منك، ينبغي اللحاق بهذا الحصان، أنت تذهب من هذا الطريق، وأذهب أنا من هذا الطريق، من اللطيف أن تعثر عليه، وساكون بالقرب منك.

غذيتُ السير بالطريق، وعبر ابن عمي مراد الحقل متجهاً إلى ترعة الري. واستغرقنا نصف ساعة في البحث عن الحصان والعودة به. قال:

- حسناً، اقفز. لقد استيقظ الجميع الآن.

- ماذا نفعل؟

- حسناً، نُعيده، أو نُخبئه حتى صباح الغد.

لم يُبْدِ ضِيْقَه، وعرفتُ أنه خبَّأهُ ولم يُرْجعه. أبقاه لفترةٍ غير محددة، وليكن ما يكون. قلت: - أين نخبئه؟.

- أعرف مكاناً.

قلت: - كم استغرقتْ سرقة الحصان؟.

أدركتُ على التوِّ أنه قد ركبه في الصباح الباكر بعضاً من الوقت، ثم أتاني هذا الصباح لِمَا يعرفه عن اشتياقي لركوبه. قال:

- من تحدَّث عن سرقة الحصان؟.

- على أيِّ حال، كم صباحاً مضىٰ منذ بدأتَ ركوبه؟.

- ليس قبل هذا الصباح.

- هل أنتَ صادق؟.

قال:

- بالطبع لا، لكن إذا انكشفنا، فهذا ما سوف أقوله. لاأريد لكلينا أن نكون كذَّابين. وبصفة عامة، فأنت تعرف أننا بدأنا الركوب هذا الصباح.

قلت: - حقاً.

وانتقل بالحصان في هدوء، إلى شونةٍ بمزرعةٍ صحراوية وفي الشونة ثمَّة شعير وبرسيم كافيان. وحين عُدنا سائرين إلى البيت، قال:

- لم يكن سهلاً أن نجعل الحصان يُسْلِسْ بمنتهىٰ الرقة. في البداية، شاء أن يجري بسرعة جنونية، لكن -كما قلت لك- لي طريقة أُعامل بها الحصان. حيث أُرَغِّبُهُ في أداء ما أريده منه. ان الجياد تفهمني.

- كيف تفعل ذلك؟

- أستطيع التفاهم مع الحصان.

- أجل، ولكن مانوع التفاهم؟.

- بسيط ومريح.

- حسناً، اني أريد أن أعرف الطريقة التي تتفاهم بها مع حصان كهذا.

قال: - أنتَ ما زلتَ ولداً صغيراً. عندما تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، ستعرف كيف تفعل ذلك.

ذهبت إلى البيت وتناولتُ طعامَ افطارٍ شهي.

وبعد الظهر، زارنا عمي خوسروف لتناول القهوة ولفائف الدخان. جلس في غرفة الجلوس، يحتسي ويدخن، ويتذكر الريف القديم. ثم وصل زائرٌ آخر، وهو مزارع يُدعى جون بايرو، الأشوري الذي تعلَّم - قتلاً للوحدة- التحدث بالأرمنية. وأحضرتْ أمي للزائر الذي يستشعر الوحدة، القهوةَ والتبغ، فلفَّ لفافة دخان، واحتسىٰ ودخن، وأخيراً، تنهد في أسى وقال:

- حصاني الأبيض الذي سُرقَ مني الشهر الماضي، مازال مختفياً.

ولم أستطع فهم كلامه.

بدا عمي خوسروف شديد الانزعاج، فصاح:

- لاضَيْر، ماذا عن فَقْدِ حصان؟ ألا تدري أننا جميعاً قد فقدنا الوطن؟ فإلامَ هذا الحزن على حصان؟.

قال جون بايرو: - حقاً ما تقول، ياساكن المدينة. لكن ماذا عن مركبتي؟ ما قيمة مركبةٍ بغير حصان؟.

زعق عمي خوسروف: - لاتُلْق بالاً إلى هذا.

قال جون بايرو: - قد مشيتُ عشرة أميالٍ لأجيء إلى هنا.

صاح عمي خسروف: - لك أرجل .

- رجلي اليسرى تؤلمني.

- لاتُلق بالاً إلى هذا.

- يُكلفني ذلك الحصان ستين دولاراً.

قال عمي خسروف: - سُحقاً للمال.

نهض جون بايرو، سار على مهلٍ وهو يخرج من المنزل، ويُغلق باب الحاجز بعنف. قالت أمي شارحة: - انَّ قلبهُ لَرَهِيف. وهو يُعاني ببساطة من مرض الحنين إلى الوطن. ويُعتبر رجلاً عظيماً.

انصرف المزارع، وهرعتُ إلى منزل ابن عمي مراد.

كان يجلس تحت شجرة خوخ، محاولاً اصلاح الجناح المُصَاب لأبي الحِنَّاء الصغير، الذي لم يَعُد يَقْوىَ على الطيران. كان يتحدث مع الطائر، قلت له:- زار جون بايرو منزلنا، ويريد حصانه. أنتَ تحتفظ به منذ شهر. أريد منك أن تعدني بألاَّ تُعيده حتى أتعلَّم ركوبه.

قال ابن عمي مراد: - أنت في حاجةٍ إلى سنةٍ لتتعلم الركوب.

- في امكاننا الاحتفاظ بالحصان سنة واحدة.

قفز ابن عمي مراد على قدميه، زعق:

- ماذا؟ هل تقبل من أحد أفراد عائلة جاروغلانيان أن يسرق؟ يجب أن يرجع الحصان إلى مالكه الحقيقي.

قلت: - في ستة أشهر على الأكثر.

أطلق الطائرَ في الهواء، حاولَ الطائرُ جاهداً، سقطَ مرتين تقريباً،

لكنه طار أخيراً إلى بعيد، عالياً وفي خطٍ مستقيم.

لمدة اسبوعين، كنّا - أنا وابن عمي مراد- نأخذ الحصان، كل صباح باكر، نخرج به من شونة المزرعة، حيث كنا نُخَبّئه، ونركبه.

وفي كل صباح، عندما يجيء دوري في الركوب وحدي، يقفز بي الحصان فوق مزارع العنب والأشجار الصغيرة، ويُلقي بي بعيداً. ولكني آمَلُ في القريب أن أتعلم الركوب مثلما تعلم ابن عمي مراد.

ذات صباح، ونحن في طريقنا إلى مزرعة (فيتفاجيان) المتصحرة، هرعنا إلى المزارع جون بايرو، الذي كان في طريقه إلى المدينة.

قال ابن عمي مراد:

- دعني أتحدث معه. لي طريقتي في التعامل مع المزارعين.

قال ابن عمي مراد للمزارع: - صباح الخير، ياجون بايرو.

تفحّص المزارع الحصان باهتمام شديد. وقال:

- صباح الخير، يا أبناء أصدقائي . ما اسم حصانكم؟

قال ابن عمي مراد بالأرمنية: (كاچس)- شُجَاعي.

قال جون بايرو:

- اسم جميل لحصان جميل، أقسم ... اقسم أنه الحصان الذي سُرِق مني منذ عدة أسابيع. أيمكنني فحص فمه؟

قال مراد: - طبعاً.

فحص المزارع فم الحصان. وقال: - الأسنان أسنانه. أقسم أنه حصاني، مالم أعرف والديّ. ان شهرة عائلتك بالأمانة، أمر معروف لي تماماً. إلا أن الحصان مُطابق لحصاني. والرجل المُرتاب، يرىٰ أن يثق في عينيه بدلاً من قلبه. نهاركم سعيد، يا أصدقائي الصغار.

قال ابن عمي مراد: - نهارك سعيد، ياجون بايرو.

وفي الصباح الباكر لليوم التالي، ذهبنا بالحصان إلى مزرعة جون بايرو، ووضعناه في الشونة، تتبعنا الكلاب بدون أن تُحْدِثَ صوتاً.

همستُ لابن عمي مراد: - أرىٰ الكلاب على وشك النباح.

قال: - قدتتنبح مع شخصٍ آخر غيرنا. لي طريقة في التعامل مع الكلاب.

وضع ابن عمي مراد ذراعيه حول الحصان، ضاغطاً أنفه بأنف الحصا ن وهو يَحْدِبُ عليه، ثم انصرفنا. وبعد ظُهْرِ نفس ِاليوم، حضر إلى منزلنا جون بايرو، في مركبته، وأرىٰ أمي الحصان الذي كان قد سُرِقَ منه، وأُعيد إليه. قال:

- لاأدري ما أفكر فيه. فالحصان أقوىٰ من ذي قبل. وأيضاً تَحسَّن طبعه، إني أشكر الله.

وانتاب عمي خوسروف - الذي كان جالساً في غرفة الاستقبال- انفعالٌ حاد، فصاح:

- الهدوء، يارجل، الهدوء، قد أُعِيْدَ حِصَانُكَ، فلا تعبأ بشيء.

مَرنِمُو

جَوقَة الكنيسة المَشْيَخيَّة

من أحد الأشياء العديدة العجيبة لمدينتنا، سهولةُ تحوّلِ أهلنا من دِيْنٍ لآخر، أو من لا دِيْنٍ أصلاً إلى أيِّ دِيْن، وبسرعة عجيبة، بدون دِراية بأيِّ فَقْدٍ أو كَسْبٍ مرحلي، وتستمر هذه الطريقة بنيَّةٍ سليمة.

وعن نفسي، على سبيل المثال، فقد ولدتُ من أسرة كاثوليكية، رغم أني لم أُعمَّد حتىٰ بلوغي الثالثة عشرة.. وهي الواقعة التي أتذكرها بوضوح، وأثارت.القديس إثارة كبيرة، دفعته إلى أن يسأل أهلي أن كانوا حمقىٰ، فَيُجِيْبُهُ أهلي: - كُنَّا غير موجودين.

صاح القسيس:

- في الثالثة عشرة من العمر ولم يُعَمّد! أيُّ نوعٍ من الناس أنتم؟

أجاب عمي ميلك:

- أغلبنا ناس مزارعون، ولكن يتواجد بيننا رجال أذكياء أيضاً.

بعد ظهر يوم سبت، لم تستغرق المسألة كلُّها أكثرَ من سبع دقائق، وحتى بعد أن عُمِّدْتُ ، كان من المستحيل أن أشعرَ بتغييرٍ ما.

قالت جدتي: - حسناً، أنت الآن مُعَمَّد. ألا تشعر بتحسنٍ ملحوظ؟

ولعدة شهور، أرى لزاماً عليَّ أن أوضِّح، أني قد شعرتُ بذكاء، مِمّا حَدَا بجدتي أن تتوهم أني مريض بمرض غامض أو أنني فقدتُ عقلي.

قلت: – أعتقد أني مازلتُ على حالي.

صاحت: – هل أنتَ تؤمن الآن؟ أم أنك مازلتَ مزدوج الشخصية؟

– أستطيع أن أُعلِنَ في يُسرٍ أن أؤمن، ولكي أُصْدِقُكِ القول، فإني غير متأكدٍ بالمرة. أريد أن أكون مسيحياً، هذا أمر طبيعي.

قالت جدتي: – حسناً، فلتؤمن اذن، وانصرف لعملك.

وكان عملي في بعض الأحيان طريفاً، وفي أحيان أخرى غير قابل للتصديق.

ترنَّمتُ مع جوقة الصبيَة في الكنيسة المشيخية بشارع (توليـر). وحصلتُ، مقابل ذلك على دولار واحد في الأسبوع، من سيدةٍ مسيحية مُسنَّةٍ تُدعى (باليفال)، التي عاشت في حزنٍ ووحدةٍ بالمنزل الصغير المُغَطَّى باللبلاب، بالقرب من المنزل الذي عاش فيه صديقي (باندرو كالخوزيان).

هذا الولد، كان يتحدث مثلي بصوتٍ عالٍ، أي أننا عزمنا على الحصول على مبلغٍ كبير –بحُسْنِ نيّةٍ طبعاً– ومن أجل تحقيق ذلك عَمَدنا إلى إثارة شفقة الآنسة أو السيدة باليفال بالدرجة التي جعلتها تسعى جاهدة لتُنْقذنا حينما تُتاحُ الفرصة لذلك. ومن جهتي، فان الانقاذ أمرٌ لاحيلة لي في الاعتراض عليه.

الآنسة باليفال (سأناديها من الآن فصاعداً هكذا، حيث أنني منذ عرفتها كانت عزباء، على وجه اليقين. وحيث أنني أجهل تماماً ما اذا كانت تزوجتْ من قبل، أو ما اذا كانت فكرتْ في الزواج من قبل، أو

صادفتْ حباً جارفاً، في بواكير حياتها بالطبع، مع لئيم استهتر بمشاعرها).

إن الآنسة باليفال، كما أسلفتُ القول، كانت أمرأة مثقفة، قارئة لأشعار(روبرت براوننج) وشعراء آخرين، امرأة شديدة الحساسية، لذا فهي تخرج إلى شرفة منزلها لتسمعنا ونحن نتحدث، وتواصل الوقوف طويلاً دون أن تنبس بشيء، إلى أن يحدث تجاوز، فتصيح بصوت حاد:

- يا أولاد، يا أولاد، لاتستخدموا اللغة السوقية.

وبدا على (باندرو كالخوزيان)، من ناحية أنه الولد الأكثر فظاظة من الآخرين. ومن ناحية أخرى، هو الأكثر مجاملة ومراعاة لشعور الآخرين، وهذا ما يجعله متميزاً للدرجة التي تجعله قريباً مني.

قال: - أجل، ياآنسة باليفيوم.

صححت السيدة له الاسم:

- باليفال . من فضلك، تعالا هنا .. كلاكما ..

نفَّذنا ماطلبتْ، وذهبنا إليها. قال باندرو:

- ماذا تريدين، يا آنسة باليفيوم؟

أدخلتْ الآنسة باليفال يدها في جيب معطفها، وأخرجتْ مجموعة كُتَيِّبات، وبدون أن تنظر إليها، أعطت واحداً لكل منا. وكان عنوان الكُتَيِّب الذي أخَذْتُهُ: (الخلاص، قصة مدمن). وكان عنوان كُتَيِّب باندرو: (السلام أخيراً، قصة مدمن).

قال باندور: - لِم هذا؟

قالت الآنسة باليفال:

- أريدكما، أيها الولدين، أن تقرءا هذين الكُتَيِّبَيْن، وأن تكونا

طيبين. أريد منكما الكفَّ عن استعمال اللغـة السوقية.

لم يُنبَس بشيء هنا بلغة سوقية.

قالت السيدة:

- هناك درس مفيد لكما في هذين الكُتيِّبين. إقرءاه ولا تستعملا اللغة السوقية بعد ذلك.

قلت: - أجل سيدتي. أهذا هو المطلوب؟

قالت السيدة باليفال:

- ثمّة شيء آخر. أودّ لو ساعدتماني -أيها الولدان- في نقل الأرغن من غرفة الطعام إلى غرفة الجلوس.

قال باندرو: - بكل سرور، ياسيدة باليفيوم، وفي أيّ وقت تشائين.

لهذا دخلنا منزل السيدة، وبينما هي تُوَجِّهُنَا إلى ما يجب عمله على وجه التحديد، دون أن نُفْسِدَ الآلة أو نُؤذي أنفسنا، نقلناه بخطوات بطيئة، من غرفة الطعام إلى غرفة الجلوس. قالت السيدة باليفال: - والآن، اقرءا هذين الكُتَيِّبَيْن.

قال باندرو: - أجل، ياسيدتي. أهذا هو المطلوب؟

قالت السيدة:

- حسنا، والآن، أريد منكما أن تترنّما وأنا أعزف على الأرغن.

قال باندرو: - لا أستطيع الترنيم، أيها السيدة باليفيوم.

قالت السيدة: - لايصح هذا، بالطبع يمكنك أن تترنم، يا بِدرو.

قال باندرو: - باندرو وليس بِدْرو، بِدْرو هو اسم ابن عمي.

وفي الحقيقة، كان اسم باندرو هو "بانتالو"، الذي يعني بالأرمنية "السراويل". وعندما بدأ ينتظم في المدرسة، لم يحظ باهتمام مُدرّسته، ولا

باستلطافها لِنُطق الاسم، لهذا كتبتْ على بطاقته ... "باندرو". مثل اسم ابن عمه، الذي كان بيدروس (بالباء المخففة B)، التي حُوِّرَتْ بدورها في المدرسة إلى بيدرو (بالباء الثقيلة P). هذا ما تمَّ فعلاً ولا ضرر لأحد.

وبدون أن تردَّ عليه، جلست السيدة المُسِنَّة على المقعد، وضبطت قدميها على دوأسات الأرغن، وبدون أن تُعطينا أية تعليمات، بدأت تعزف ترنيمةً، بدا بوضوح من رتابتها أنها دينية، وبعد قليل، بدأت تُرنِّم بنفسها. ونطق باندرو بصوت ناعم، لايَمِتُّ بِصلةٍ إلى المسائل الدينية، وليس سوقياً ، كلمةً لم تسمعها السيدة باليفال، لِحُسن الحظ. وكان صوت السيدة باليفال، بأيِّ مقياس، غير مُحرِّك للعواطف. وقد أحدثتْ دوّاسات الأرغن صوتاً ضخماً أعلى من صوت الترنيمة، ولم تكن أنغام الأرغن واضحة قطٌّ، كما أنَّ صوت السيدة باليفال لم يكن مُفْرحاً بالتأكيد.

رنَّمت : **(أيها الجليل، أيها الجليل العظيم...)**

التفتت إلينا مُومِئةً، وقالت: - الآن رنِّموا. رنِّموا، يا أولاد..

ولم نكن نعرف الكلمات ولا الموسيقى، لكن يبدو أن المجاملة المتبادلة تتطلب على الأقل عناءاً كبيراً، حاولنا قدر ما وسعنا الجهد تَتَبُّعَ الموسيقى الآتية من الآرغن، والكلمات الحزينة التي رنَّمَتْ بها السيدة باليفال. رنَّمْتُ:

- **(هو) خالق العاصفة في الجليل الثائر...**

حاولنا ترنيم ثلاث ترنيمات. وبعد كلِّ ترنيمة، كان باندرو يقول:

- أشكرك كثيراً، أيتها السيدة باليفيوم، هل يمكننا الانصراف الآن؟

أخيراً نهضتْ من على الآرغن، وقالت:

- إني متأكدة أنكما ستكونان الأفضل. وإذا ما دُعيتما من أصدقاء السوء للشراب، فابتعدا..

قال باندرو:

- سوف نبتعد، أيتها السيدة باليفيوم، أليس كذلك يا آرام؟.

قلت: - سأبتعد..

قال باندرو:

- وأنا كذلك. هل يمكننا الانصراف الآن، أيتها السيدة باليفيوم؟

قالت: - اقرءا الكُتَيِّبين، إنهما غير قديمين تماماً.

قال باندرو: - سوف نقرأهما، حالما يتسع لنا الوقت.

تركنا منزل السيدة ورجعنا إلى الفناء الأمامي لمنزل باندرو، وبدأنا نقرأ الكُتَيِّبَيْن. وقبل أن نصل إلى النصف، أطلّت السيدة من الشرفة، وقالت بصوتٍ مُحْتدٍ وبانفعال: - أيكما أدّىٰ ذلك؟

قال باندرو: - ماذا عن أينا؟

وكان مُتَحَيِّراً جداً. قالت السيدة باليفال: - أيكما الذي ترنَّم بذلك؟

قلت: - كلانا ترنم.

قالت السيدة باليفال:

- لا، أحدكما فقط هو الذي ترنَّم. لأحدكما صوت كَنَسيٌّ جميل.

قال باندرو: - لست أنا.

قالت السيدة باليفال: - أنت، ياايوجين. أأنت الذي ترنَّمْت؟

قلت: - آرام. لستُ ايوجين. لا، ولا أعتقد أنني الذي ترنَّمت.

قالت السيدة باليفال : - ياأولاد، تعالا هنا.

قال باندرو: - من؟.

قالت السيدة : - كلاكما.

عندما صرنا في المنزل، وقد جلستْ السيدة إلى الأرغن، مرة ثانية،

قال باندرو: - لاأريد أن أرنّم . أنا لاأحب الترنيم.

قالت السيدة لي: - أنت تُرنِّم.

وترنمت... قفزتْ السيدة باليفال على قدميها. قالت:

ـ أنت الذي أعني. يجب أن تُرنّم في الكنيسة.

قلت: - أنا لا أرغب .

- يجب ألا تستعمل اللغة السوقية.

- أنا لااستعمل اللغة السوقية، وأتعهد بعدم استعمال اللغة السوقية مرة ثانية، طالما بقيتُ حياً، لكنني لا أحب الترنيم في الكنيسة .

- ان صوتك الذي سمعته الآن صوت كَنَسيّ تماماً.

- إنه ليس كذلك.

- بل هو صوت كنسي.

قلت: - حسناً ، أنا لا أُحِبُّ أن أرنّم بأيّ حال من الأحوال.

قالت السيدة باليفال: - يجب أن تُرَنِّم، يجب أن تُرَنِّم.

قال باندرو: - شكراً جزيلاً، أيتها السيدة باليفيوم، هل يمكننا الانصراف الآن؟ هو لايُريد أن يُرنِّم في الكنيسة.

أصرَّت السيدة: - يجب أن يُرنِّم ، يجب أن يُرنِّم.

قال باندرو: - لماذا؟

- لخلاص روحه.

همس باندرو لي مرة ثانية بكلمة نابية.

قالت السيدة: - الآن قل لي: ما اسمك؟

فقلتُ لها اسمي. قالت: - أنت مسيحي طبعاً؟.

- أعتقد ذلك.

- تتبعُ الكنيسة المشيخية طبعاً.

قلت: - لا أعرف شيئاً عنها.

قالت السيدة:

- أنتَ تتبعها، بالطبع تتبعها. أريدك تترنَّم على مسرح الكنيسة المشيخية، مع جوقة الأولاد، يومَ الأحد القادم.

قال باندرو مرة ثانية: - لماذا؟.

شرحتْ السيدة:

- نحن في حاجةٍ إلى أصوات. يجب أن يكون عندنا أصوات شابة. يجب أن يكون عندنا مُرنِّمين. يجب أن تُرنِّم يوم الأحد القادم.

قلت: - لاأحب أن أرنِّم ، ولا أحب الذهاب إلى الكنيسة أيضاً.

قالت السيدة باليفال: - يا أولاد، اجلسا، أريد التحدث معكما.

وجلسنا، وتحدثت السيدة باليفال معنا لمدة ثلاثين دقيقة على الأقل.

لم نُصدق كلمة من هذا. وبرغم الخروج عن حدود اللباقة، فقد حرصنا على الاجابة على أسئلتها بالطريقة التي نعلم أنها تريد منا الاجابة عليها بها. ولكن عندما طلبَتْ منا أن نجثو على ركبتينا معها أثناء صلاتها، لم نفعل ذلك. وناقشت السيدة باليفال هذه النقطة بعضاً من الوقت، ثم قررت أن نؤدي بطريقتنا لفترة. ثم حاولتْ مرة ثانية، لكننا لم نفعل ذلك. قال باندرو أنه يمكننا أن نُحَرِّك الأرغن في أيِّ وقت، أو أيّ شيءٍ آخر مثله، لكننا يجب ألا نجثو على ركبتينا.

قالت السيدة باليفال: - حسناً، ألا تُغلقا عينيكما؟.

قال باندرو: - لماذا؟.

- من المعتاد أن يُغلق كلُّ فردٍ عينيه عندما يُؤدّي شخص ما الصلاة.

وقالت السيدة باليفال:

- لاأحد، حتى الآن، فَعَلَ شيئاً، ولكن اذا ما وعدتماني بأن تُغلقا عينيكما، فسوف أصلي.

قال باندرو: - ماذا تريدين بالصلاة؟.

- أريد أن أدعو لكما أيها الأولاد.

قال باندرو: - لماذا؟.

- صلاة من أجل ألاّ يُصيبكما أذى. هل ستغلقان عينيكما؟.

قال باندرو: - أوه ! حسناً.

اغلقنا عيوننا، وصلّت السيدة باليفال... لم تكن، بهذا التمهيد الطويل، صلاة قصيرة.

قالت: _ آمين، الآن، يا أولاد، ألا تشعران بتحسن؟

بكل صدق لم نشعر... قال باندرو:

- نعم، نحن نشعر بتحسن، هل يُمكننا الانصراف الآن، أيتها السيدة باليفيوم؟ وفي أيِّ وقتٍ تريدين نقل الأرغن، فسننقله من أجلك.

قالت السيدة باليفال لي:

- ترنَّم دائماً، فأنت مؤهلٌ لذلك، وابتعد عن أيّ رفيقٍ شيطانٍ يدعوك للشراب.

- حاضر، ياسيدتي.

- أنت تعرف مكان الكنيسة.

- أية كنيسة؟

- الكنيسة المشيخية بشارع تولير.

قلت: - اعرف مكانها.

قالت: - سيتوقع السيد شيروين حضورك صباح الأحد في التاسعة والنصف.

حسناً واضح تماماً أنني حُوصِرتُ .

ذهب باندرو معي يوم الأحد إلى الكنيسة، لكنه رفض الوقوف مع صِبْيَةِ الجَوْقَةِ ليترنَّم. وقف في الصف الأخير من الكنيسة، وأخذ يُراقب ويُنصت، وعن نفسي، وصلتُ إلى أعلىٰ منسوبٍ للتعاسة في حياتي هذا اليوم ومع ذلك كنتُ قد ترنَّمت.

أخبرتُ باندرو بعد انتهاء الترنيم: - لن يتكرر هذا أبداً.

وبالطبع، لم أظهر يوم الأحد التالي، لكن ذلك لم يُفِد في شيء، فقد دعتنا السيدة باليفال مرة أخرىٰ إلى منزلها، وعزفتْ على الأرغن، وترنَّمتْ، وجعلتنا نُجَرِّب الترنيم والصلاة، وقد قرَّرتْ بما لايدع مجالاً للتراجع أن تُبْقي عليَّ في جوقة الصبية. رفضتُ في حسم، فقررت السيدة باليفال أن تعرض المسألة كلها بطريقة مفصلة، قالت:

- أنت صوت كنسي نادر، صوت مفعم بالايمان. أنتَ نفسك تتجه إلى الايمان بصدق، على الرغم من أنك لاتعرف ذلك بعد. لذا، دعني أطلب منك أن تترنَّم كلَّ أحد، لأجل خاطري، وسأدفع لك.

قال باندرو: - كم؟.

قالت السيدة باليفال: - خمسين سنتاً.

ترنَّمنا عادةً أربع أو خمس ترنيمات، استغرقت كلُّها حوالي نصف ساعة، وإن كُنَّا قد جلسنا ساعة أخرى عندما ألقىٰ الواعظ مواعظه.

باختصار، لم يكن الأمر يستحق .... لهذا السبب، لم أنطق باجابة.

اقترحت السيدة باليفال: - خمسة وسبعين سنتاً.

كان الجو خانقاً، والواعظ ثقيل الدم، وكلُّ شيء مخيباً للآمال.

قالت السيدة باليفال: - دولاراً واحداً، ولايزيد سنتاً واحداً.

قالباندرو: - اجعليه دولاراً وربع.

- لازيادة على الدولار سنتاً واحداً.

- له أحسن صوتٍ في الجوقة كلّها. دولار واحد؟ ان صوتاً كصوته يستحق دولارين لأية ديانةٍ كانت.

- لقد تقدمتُ بعرضي

قال باندرو: - هناك ديانات أخرىٰ.

من المهم أن أقول ان هذا يُخبِط السيدة باليفال. قالت بمرارة:

- ان صوته صوت كنسي، علاوة على أنه مَشْيَخي.

قال باندرو:

- انه لمن دواعي سعادة المعمدانيين أن يجدو صوتاً مثله بدولارين.

قالت السيدة باليفال بشيء من الاستهانة: - المعمدانيون!!؟

قال باندرو: - انهم لايختلفون عن المشْيَخيِّين.

قالت السيدة باليفال:

- دولار واحد. دولار واحد. وسيكون اسمك ضمن البرنامج.

قلت: - أيتها السيدة باليفال، أنا لا أُحِبُّ أن أترنَّم.

- نعم ، تترنَّم، تظنُّ أنك لا تستطيع الأداء؟ لو أنك تمكنتَ من رؤية

وجهك وأنتَ تترنم.

قال باندرو: - له صوتٌ شبيهٌ بصوت الملاك.

قلتُ لباندرو بالأرمنية: - سَأُركّز عليك.

قال باندرو: - ليس ثمة صوت بدولار واحد.

- حسناً يا أولاد. ليكن دولاراً وخمسة عشر سنتاً، لاأكثر.

قال باندرو: - دولار وربع، وإلّا ذهبنا إلى المعمدانيين.

- وهو كذلك، لكن يجب أن أخبركما أنكما تضعان شروطاً قاسية في المساومة.

قلت: - انتظري لحظة، أنا لا أرغب في الترنيم. لاأرغب في الترنيم بدولار وربع أو بأيِّ مبلغٍ آخر.

قالت السيدة باليفال: - المساومة هي المساومة.

- لم أشترك في مساومة. باندرو هو الذي ساوم. دعيه يترنّم هو.

- هو لايستطيع أن يترنَّم.

قال باندرو باعتزاز كبير: - صوتي أوحش صوت في العالم.

قالت السيدة باليفال:- ان صوته الرديء لايستحق عشرة سنتات.

قال باندرو: - ولا حتى نَكَلِه (*).

قلت: - حسناً، لكنني لن أقوم بالترنيم، من أجل دولار وربع، أو أيِّ مبلغٍ آخر. لستُ في حاجة إلى المال.

قالت السيدة باليفال: - أنتَ قبلتَ المساومة.

قال باندرو: - نعم، أنتَ قبلتها.

(*)- النكلة: تساوي خمس سنتات أمريكية.

قفزتُ إلى يمين باندرو، في غرفة استقبال السيدة باليفال وبدأنا نتعارك. حاولت السيدة المسيحية المُسِنَّة فَضَّ العِرَاك، كان من المستحيل عليها تحديد أينا هو صاحب الصوت الملائكي، أخذت تدعو. استمر العراك حتى اصطدمنا بمعظم أثاث الغرفة، ماعدا الأرغن. كانت المباراة متعادلة في النهاية، وتعب المتصارعان فاستلقيا على ظهريهما.

توقفت السيدة باليفال عن الابتهال وقالت:

- ليكن موعدنا يوم الأحد، بدولار وربع.

وأمهلتني بعضاً من الوقت لألتقط أنفاسي.

قلت: - أيتها السيدة باليفال، سوف أُرتّم في تلك الجوقة، إذا رتَّم باندرو معي.

- لكن صوته ... انه مخيف..

- هذا لايعنيني. اذا رتّمتُ، فيجب أن يُرتّم هو الآخر.

- أخاف أن يُفسِد مجموعة الجوقة.

- انه سيصحبني كلَّ يوم أحد.

- حسناً ... دعني الآن لأفكر.

وأولتْ الفكرة اهتمامها. قالت السيدة باليفال:

- لنفرض أنه ذهب ووقف مع أفراد الجوقة، لكنه لم يرتّم؟ لنفترض أنه تظاهر فقط بالترنيم؟

قلت: - هذا يُناسبني، لكن ينبغي أن يظلَّ هناك طوال الوقت.

قال باندرو: - ماذا أفعل؟

قالت السيدة باليفال:

- حسناً، الآن أنت لايمكن أن تتوقع مني أن أدفع لك شيئاً.

- صوتي أسوأ صوتٍ في الدنيا.

- يجب أن تكون مُنْصِفاً. وفي النهاية، يجب ألا تترنم. كلُّ ماهومطلوب، الوقوف مع الأولاد الآخرين.

قال باندرو: - خمسة وعشرون سنتاً لاتكفي.

نهضنا مِن على الأرض، وبدأنا نُعيد ترتيب الأثاث.

قالت السيدة باليفال: - وهو كذلك دولار وربع للولد الذي يُرنِّم، وخمسة وثلاثون سنتاً للولد الذي لايُرنِّم.

قال باندرو: - اجعلي المبلغ خمسين سنتاً.

- حسن جداً. ليكن ما طلبت. دولار واحد له، وخمسون سنتاً لك.

قال باندرو: - لنبدأ العمل يوم الأحد القادم.

- وهو كذلك. سأدفع لكما هنا بعد قُدّاس الكنيسة. لا تقولا كلمة واحدة لأيِّ ولدٍ من أفراد الجوقة.

قال باندرو: - لن نقول شيئاً لأحد.

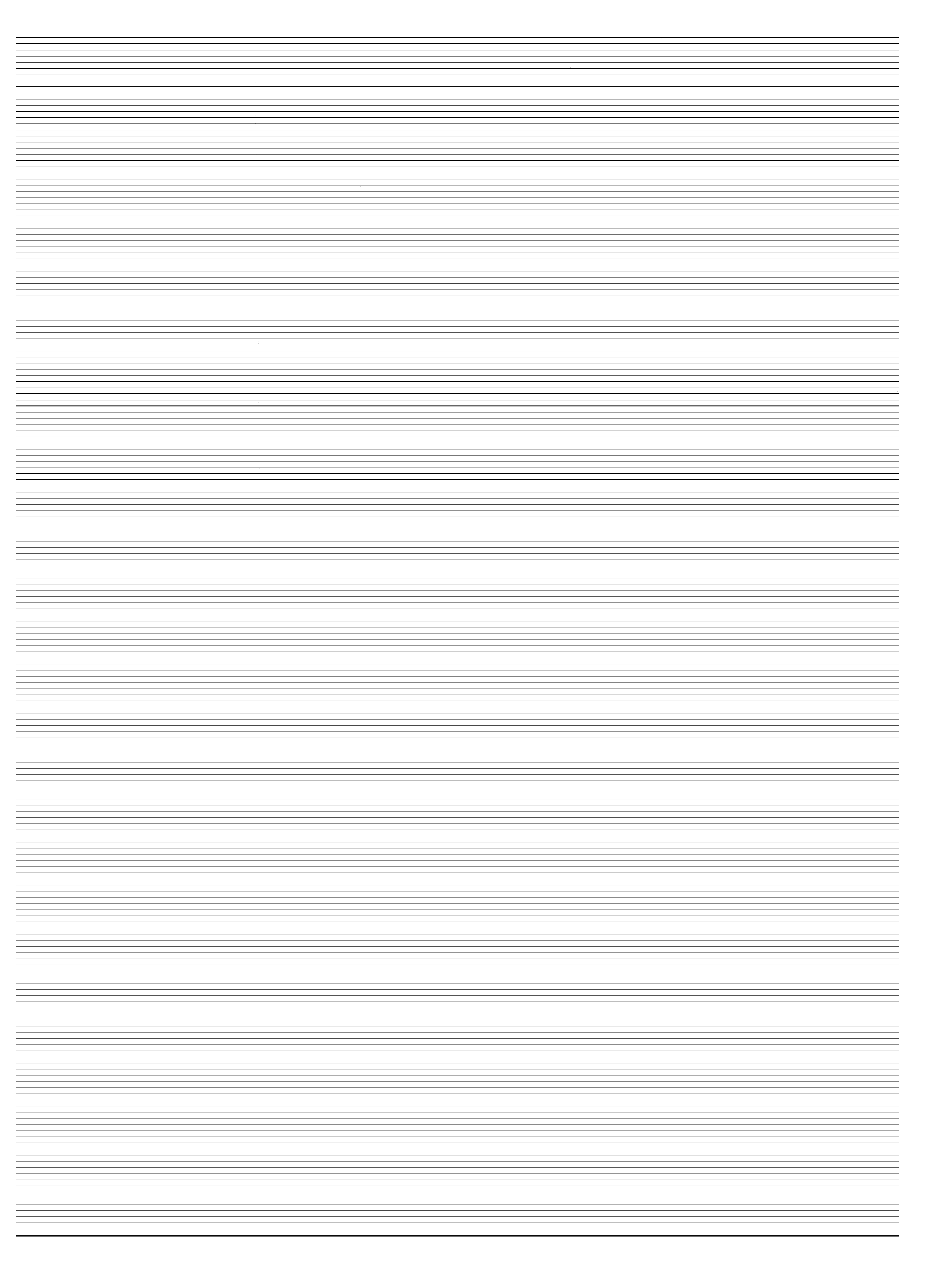
وبهذه الطريقة، أصبحتُ مَشْيَخيّاً. على نحوٍ ما، في سن الحادية عشرة، على الأقل كلَّ صباح أحد. ولم يكن المال سبباً. لكنها المساومة التي أُبْرِمَتْ، والسيدة باليفال التي أرغمني حماسها على الترنيم من أجل العقيدة.

إنه أمر عجيب في بلدتنا، من اليسير علينا جميعاً - أوعلى كلِّ من أعرف على الأقل - تغيير عقائدنا، دونما أيّ ضررٍ يلحق بأيِّ شيءٍ أو فرد. وعندما كنتُ في الثالثة عشرة، عُمِّدتُ بالكنيسة الكاثوليكية الأرمنية، ولو أنني مازلتُ أُرنِّم للمشيخيات. وبينما كنتُ -عن نفسي- مرتاباً بعض الشيء، من النمط الديني التقليدي بصفةٍ عامة ، كنتُ شديدَ الرغبة، مهما

كلفني الأمر، في أن أعرف كُنْـهَ ذاتي، وأن أصل إلى مفهومٍ للقدرة الخارقة، وبطريقتي الخاصة. وحتى بعد تعميدي أصاب قلبي ضيقٌ شديد.

بعد شهرين من تعميدي، تغيَّر صوتي، وأُلغي الاتفاق الذي أبْرَمْتُهُ مع السيدة باليفال، مِمّا شَكَّلَ ارتياحاً كبيراً لي، وطعنة دامية لها.

أما فيما يتعلق بكنيسة الأرمن الكاثوليك في شارع (فينتشرا)، فقد ذهبتُ إلى هناك في عيد القيامة وعيد الميلاد. أما عدا ذلك من الأوقات، فقد كنتُ أنتقل من دينٍ لآخر، ولم يُصبني، في النهاية، ثمَّة ضَرَر، شأن غالبية الأمريكيين. عند توطيد إيماني بكل دين، بما في ذلك ديني، دونما ضغينةٍ لأحد، بغضِّ النظر عمَّا يُؤمن به أو لا يُؤمن، طالما كان مَعْدَنُه طيباً.



العزف على البيانو والغناء هو كلُّ ما تستطيعَ أن تُؤَدِّيه. وهي لا تعرف كيف تطبخ أو أيَّ شيءٍ من هذا القبيل. على أيِّ حال، هي لاتحب الطبخ لأنها لاتعرف شيئاً عن عمل الفطائر، وهذا ما أحبَّته. وتأكل غالباً شيئاً يُشبه الفطائر، كبيراً وناعماً وذا لونٍ زاهٍ، وهي ذات وجهٍ طفولي رغم أنها في أواخر الثلاثينيات تقريباً. وزَعَمَتْ أنها لم تزل في نفس المرحلة من العمر. قالت لأم الفتىٰ:

- كنتُ ممثلة على مدار ثلاثة مواسم.

أمه أحبَّت الجارة، وإن فَشِلَتْ في تحديد عمرها بالضبط. فقد تزوجت وليس لديها أطفال، وهذا ما لاتقوىٰ أمه على تصوره، وهي تقضي كلَّ وقتها في خياطة أثوابها وترتديها فتبدو بها رائعة الجمال.

تسأل أُمُّهُ أُخْتَه: - لأجل من ؟.

وأُمُّهُ تحب أن تشتغل في المطبخ باعداد الطعام أو الخبز، وتحب أن تشتغل بالإنجليزية التي لاتُتقن الحديث بها، لكنها تحب التحدث بها عندما تتحدث عن جارتها. قالت:

- ماالسرُّ في حِرْصِها البالغ على أن تبدو لطيفة؟.

ثم تقول بالإيطالية:

- ما ألطف عزفها على البيانو، إنها جارة تُتقنُ العزف.

وكانوا ينتقلون من أحد أطراف المدينة إلى الطرف الآخر، ومن مدينة إيطالية إلى حيث يُقيم الأمريكيون. وعاشت هذه السيدة كواحدة منهم، وهي أمريكية، لهذا رأت أمه أنها عاشت بنفس الطريقة التي يعيشون بها، وتحب المأكولات المنوعة المزينة، حلوة المذاق، والدسمة الناعمة، وذات الألوان الوردية.

قالت: - اعتادت الجارة على الزيارات الكثيرة، لأنه من الممتع أن تعيش وسط أناس واقعيين.

واعتادت أن تقول لها:

- أنت تعلمين، يا أمندولا، أنه من دواعي السرور أن تكون لنا جارة مثلك. وكم هي لطيفةٌ طريقتك في رعاية أطفالك الظرفاء، وأنتِ بلا زوج. فكلُّ البنات والصبيان يكبرون وهم يحملون نفس رقتك.

واعتادت أمه أن تقول ضاحكة:

- أوه، ان الصغار بخير، فأنا أُطعمهم وأعتني بهم. وأهتم بكلّ شيءٍ يخصّهم: بالصداع، وآلام الأسنان، ومتاعب الدراسة.

صاحت أمه ضاحكة، ثم نظرت إلى الجارة وقالت:

- انهم صغاري. نحن نكافح من أجلهم، ونصرخ فيهم، ونضرب كلاً منهم، لكننا نحبهم واحداً واحداً. أليس عندك أطفال؟

قالت الجارة: - لا .. لقد أصبح الولد مُعَرقلاً.

كانت أمه كثيرة الصَخَب والجَفاء وموزعة الاهتمام. وهي المرة الثالثة التي تسأل فيها جارتها عن عدم وجود أطفال. وعرف أن ما تعنيه هو

"كيف لاتملكين أيّ طفل؟ مع أنك امرأة كبيرة، ظروفها كلُّها مهيأة لأن تُنجب أطفالاً؟ ".

وكانت جارتنا تزورنا غالباً عندما يغيب زوجها. إنه يجوب الوادي من (باكرسفليد) إلى (ساكرامنتس)، لبيع الأدوات والآلات المعدنية. ونادراً ما تُصاحبه زوجته.

وهي تُفضّل عدم الذهاب لِما في السفر من مشقة. وفي المرات التي لاتذهب فيها معه، تُؤثِرُ الانفراد بنفسها في المنزل، وهذا ما جعلها تشعر بالوحدة، لهذا اعتادت أن تزور الأسرة الايطالية.

وذات ليلة، سيطرت على نشيجها المتواصل حين لفَّت أمُّهُ ذراعيها حول الجارة كما لو أنها إحدى رفيقاتها وطيّبت خاطرها.

بَيْدَ أنه لاحظ شيئاً أربَكَهُ، لم تكن تصرخ بالفعل، فليس من اللائق أن تصرخ، لكنه مجرد شيءٍ عابر، ولم تُصب بأذىً أو ندمٍ أو ألمٍ أو بأيّ شيءٍ آخر. ولعلها تُحب التظاهر بالصراخ، فصرخت، كما لو أن رغبة تملكتها في شراء اثنتي عشرة فطيرةٍ محشوةٍ بالكريمة والتهامها. هذا ما دار في خلده ...

قالت: - أوه، مدام أمندولا، كنت أجلس في المنزل طوال الوقت بمفردي، فبدأت أذكر كل السنوات التي عشتها، فارتعبتُ وأخذتُ أصرخ...

- أوه، ياله من أمرٍ سيء!

ثم ابتسمتْ بطريقةٍ كشفتْ عن تعلّقها الشديد بالفتىٰ وارتباكها غير المعهود. والتفتتْ حولها ناظرة إلى أخته ثم التفتتْ إليه مبتسمة، وهو لايدري ماذا يفعل.. رنَتْ إليه طويلاً، وليس مجرد نظرة خاطفة. وأدرك على التوّ أنها رائعة الجمال، كبيرة وناعمة، وكلُّ ما فيها حلو.. أحسَّ بارتباك ..

كانت ذراعاها بضَّتين...

كان الأطفال الصغار جميعاً قد آووا إلى الفراش، ولم يكن هنالك سوىٰ أمه وأخته وهو. قالت أمه: - أنتِ طيبة. تجلسين معنا وتتحدثين، أنتِ لطيفة. ماذا حدث لكِ؟

قالت الجارة:

- أشعر بالأسىٰ البالغ، كلما ذكرتُ السنوات الخوالي، وقتما كنتُ بنتاً صغيرة، وعندما كبرتُ والتحقتُ بالمدرسة العالية، وأخيراً أحسستُ بالوحدة البالغة هذه الأيام.

قالت أمه: - اشربي الخمر. الخمر من نوع جيد.

ورشفت الجارة الخمر. قالت:

- أوه، كم هي ممتعة! وأنتم أسرة عظيمة، يامدام أستدولا. ألا تحضرين لزيارتي؟ أحب أن تتفرَّجي على منزلي.

قالت أمه:

- أوه، بالتأكيد.

أرادتْ أمه أن تتفرَّج على منزلها. فذهبوا جميعاً إلى المنزل بالمدخل المجاور، أطلعَتْهم الجارة على غرف المنزل، غرفة، غرفة. المنزل يُشبهها تماماً، يُشبه الفطائر المحشوة بالكريمة .. فكلُّ غرفةٍ ناعمةٌ ودافئةٌ وزاهيةُ الألوان، ما عَدَا غرفته. له غرفة خاصة به، وفراشٌ خاص به، وكلُّ شيءٍ في الغرفة يخصُّه. ورأىٰ الفتى أن هنالك شيئاً مختلفاً. وكلُّ ما يعرفه أن الأمريكيين يختلفون عن الايطاليين. فاذا نام هو في فراشٍ وهي في فراشٍ آخر، فان ذلك يبدو غريباً في مكانٍ آخر. وتبدو غرفتها مكاناً من عالم آخر. انها تُشبه كثيراً امرأةً يُحسُّ بالخجل منها. فوقف عند المدخل، بينما

أُعجبتْ أمه وأخته بالغرفة الرائعة، ثم أشارتْ له الجارة، وأخذته من يده. شعر باثارة. وودَّ لو أنه ظلَّ في هذا الوضع معها، بمفردها وفي مكانٍ آخر.

ضحكت الجارة وقالت:

– ولكني أريد، يا تومي، أن تُعجب أنت أيضاً بغرفتي. فأنت فتىً ذكي ومهذَّب.

هو لم يتأكد تماماً، ربما كان ذلك مَحْضُ خيال، لكنها عندما قالت عنه أنه ذكي ومهذب، وبدا له أنها ضغطتْ على يده. اقشعرَّ بدنه، وأوشك أن يعتلَّ. هو لم يعرف عن طباع الأمريكيين شيئاً قطّ ، وهو لايريد أن يقع في خطأ. ربما ضغطتْ على يده، وربما فعلتْ ذلك بصفتها امراة أكبر سناً، أو قريبة. ويُحتمل أنها فعلتْ ذلك لكونها جارته، ولاشيء أكثر. سارع في سحب يده بعيداً قدر ما يستطيع. لم يقل شيئاً عن الغرفة، لاعتقاده أن أيَّ كلامٍ يقوله سيكون مدعاةً للسخرية. ويتمنَّىٰ أن يعيش في مكان مثله ويُقيم فيه بصفة دائمة معها. انها فكرة طائشة، فهي متزوجة، وكبيرة في مقام أمه، رغم أنها أصغر كثيراً من أمه. لكن هذا ما يتمنَّاه.

وبعدما شاهدوا المنزل، أعدَّت لكلِّ واحدٍ فنجانَ شيكولاته. كانت الفناجين رقيقة ورائعة. وضعتْ طبقاً مليئاً بالفطائر المختلفة من كلَّ الأنواع. واضطرتهم أن يأكلوا كثيراً. على أيِّ حالٍ، فمن كلِّ نوعٍ أكلتْ هي واحدة، واضطرتهم أن يأكلوا واحدة أيضاً، وبذلك أكل كلٌّ منهم أربع فطائر، وتَبَقَّتْ فطيرتان. ضحكتْ وقالتْ أنها لم تتمكن من صُنْع كميةٍ كافيةٍ من الفطائر، وشَرَعَتْ تأخذ واحدةً من الاثنتين الباقيتين، وحيث أن (تومي) هو الرجل الموجود معهم، فإنه يتوجب عليه أن يأخذ الأخرىٰ. وقالت أن ذلك سيُمتِعُ الفتىٰ أكثر.

زادتْ حيرتُه وألمُه العميق من الموضوع برمّته. فثمة شيء جديدٌ وغريبٌ وبعيدٌ" عن نطاق عالمه، فيما يُشْبِهُ الرغبةَ في الانفلات من هذا العالم وعدم العودة إليه بأيّ حال من الأحوال، والدخول في المنطقة الغريبة من الدفء والجمال والراحة ويبدو أنها تفعل شيئاً يجعله يشعر بالإثارة، بصوتها وضحكتها وهيئتها، ونظام منزلها، علاوة على اهتمامها الخاص به.

وفكَّر فيما إذا كانت أمه وأخته قد عرفتا شيئاً من هذا، وأمِلَ ألاّ تكونا قد عرفتا شيئاً. وبعد تناول الشيكولاته والفطائر، طلبت أمه منها أن تعزف على البيانو، وتغني، ففرحتْ لهذا. عَزفَتْ ثلاث أغنيات، واحدة لأمه، وواحدة لأخته، ثم قالت: - هذه الأغنية لأجل خاطر تومي.

وعزفتْ وغنَّت الأغنية التي تقول:

"ياشهر مايو الحبيب ... الحبيب .. الحبيب"

وكان الفتىَ محلَّ الاطراء. وأمِلَ من أمه واخته ألا يُشِيْعَا ذلك، وكان شيئاً سخيفاً، لأن أولَّ شيءٍ قالته أمه عندما وصلوا إلى البيت هو:

- تومي، أعتقد أن لك محبوبة الآن.

قالت أخته: - هي مُتَيَّمَةٌ بك.

تكبره أخته بثلاث سنوات، وهي في السابعة عشرة، ولها صاحب. وهي لاتعرف إن كانت تريد أن تتزوجه أم لا.

قال الفتى:- إنها لطيفة. إنها لطيفة معنا جميعاً. هكذا هي.

قالت أخته:

- أوه لا. إنها تعاملك بلطفٍ أكثر منَّا. إنها يا تومي قد وقعتْ في غرامك. ألم تقع أنتَ في غرامها؟.

قال الفتى: - أوه ، اسكتي.

قالت أخته: - أنتِ ترين، يا أمي، أنه وَقَعَ في غرامها.

قال الفتى: - اطلبي منها، يا أمي ، أن تكفَّ عن هذا.

قالت أمه لأخته: - ألا تتركين ولدي بمفرده ؟

ثم جَلْجَلَت أمه بضحكة، كتلك التي تُطلَقُ لفكاهةٍ مضحكة. ظلَّت أمه وأخته تضحكان حتى بدأ هو الآخر يضحك. ثم علا صوت ضحكتهم المباغتة أكثر من ذي قبل، خرجت الضحكة من صميم قلوبهم. واحتدَّ الصوت كثيراً.

قال الفتى: فلتكفّا عن الضحك بصوتٍ عالٍ، ماذا لو سمعتنا؟ ستظن حينئذ أننا نضحك عليها.

قالت أخته: - إنه وقع في الحب يا أمي.

هزَّت أمه كتفيها، وفطِنَ إلى أنها تهمُّ بابداء إحدىٰ ملاحظاتها المضحكة، وتمنَّىٰ ألا تكون مُحَيِّرَةً كثيراً.... قالت أمه: - إنها فتاة لطيفة. وعاودت أمهُ الضحكَ من جديد.

قرَّر ألا يُطيل التفكير فيها. وأدرك أنه ينبغي عليه أن يُعْلِمَ أمه وأخته بهذا، ويطلب منهما ألا يسخرا منه. فمن غير الممكن أن يجعلاه محلَّ سخرية. فهذا شيء لانظير له، لم يستطع أن يشرح لهما، لكنه رأىٰ أن الواجب عليهما ألا يسخرا منه.

في الصباح، أيقظه عزف البيانو، وبدأ يُحسُّ بِمَا أحسَّه في الليلة الماضية، عندما أمسكتْ بيده، الآن غُلِبَ علىٰ أمره. لم يشأ أن ينهض من فراشه، أو يقومَ بعمل أيّ شيء. وما رَغِبَ فيه هو أن يكونا معاً في غرفة تُشبه غرفتها، بعيداً عن الناس، بعيداً عن أيّ شخص، وإلى الأبد. غنَّت

الأغنية من جديد، غَنَّتْ أربعة مقاطع منها...

" **الحبيب .. الحبيب.. الحبيب**"

أجبرته أمه أن ينهض. قالت:

- ماذا حدث؟ قد تأخرتَ عن عملك. أمريضٌ أنت؟ .

قال: - لا... كم الساعة؟.

قفز من الفراش وارتدىٰ ثيابه، وأكل وركب دراجته، وأسرع متوجهاً إلى البقالية. ولم يتأخر سوىٰ دقيقتين فقط.

استمرت الحكاية الخيالية شهراً كاملاً، طوال شهر أغسطس. وحضر زوجها إلى البيت لمدة يومين في منتصف الشهر. وانخدع بما يَحُوط بالدار، ثم غاب من جديد.

لايعرف الفتى ما يحدث. إنها فَتَنَتْهُ مرتين أو ثلاث مراتٍ كلَّ أسبوع، ظهرتْ في الفَناء عندما تَواجَدَ هو فيه. ودَعَتَ الأسرة كلّها لزيارة منزلها على الشيكولاته والفطائر، مرتين أو ثلاث مرات. وأيقظته في كلِّ صباح على صوت غنائها: " **الحبيب.. الحبيب.. الحبيب**" .

ومن حين لآخر، تمزح معه أمُّهُ وأختُهُ بالحديث عنها.

وذات ليلةٍ من ليالي سبتمبر، عندما كان بالبيت، أطلقت أخته وأمه ضحكة كبيرة وهما يتحدثان عنه وعن جارته.

قالت أمه: - هذا لايليق. فلتتناول عشاءك هنا.

قالت أخته: - نحن نُشفقُ عليك.

قال الفتى: - عمَّ تتحدثان؟.

قالت أمه: - إنه الآن متأخِّرٌ جداً.

قال الفتى: - ماذا تقصدان بالمتأخّر جداً؟.

قالت أخته: - أنت انتظرتَ أطولَ ممَّا يجب.

قال الفتى: - أوه، أفصحي ... عَمَّ تتحدثين؟.

قالت أخته: - أصبح لها حبيبٌ آخر الآن.

انتابه ذهول واستياء وإعياء، إلا أنه حاول أن يُكمل طعامه، والايَبِيْنَ عمَّا يشعر... قال: - من ؟.

قالت أخته: - محبوبتك. أنتَ تعرف مَنْ.

لم يندم. كان غاضباً. ليس من أخته ولا من أمه. ولكن منها، فهي حمقاء. وحاول أن يُشْغِلَ باله بشيءٍ هزليٍ آخر.

قال: - حسناً، كان يجب أن يحدث.

قالت أخته: - إنه يأتي ويأخذها في عربته (الكاديلاك).

قال الفتى: - وماذا عن زوجها؟.

فأحسَّ بغباء. قالت أمه:

- إنه لايدري ! ! ربما هو لاثبالي، أو أنه قد مات.

جَلْجَلَتْ أمهُ بضحكةٍ، وأختُه أيضاً، ثم ضحك هو الآخر. على أيِّ حال، كان يضحك مسروراً كعادة الايطاليين. ممَّا جعله يشعر بتحسنٍ طفيف. ولو أنه أحسَّ بعد العشاء بتعبٍ غريبٍ، طوال الوقت.

ولمدة أسبوع، ظلّتْ أمه وأخته تحكيان له عن الرجل الذي يأتي ويأخذها بعد الظهر، مصطحباً إياها في عربته (الكاديلاك).

قالت أمه: - ليس لها أسرة. لكنها بخير. وما فائدة أن تكون رقيقة بلا هدف؟

قالت أخته: - إنه رجل مليح ومهيب.

قالت أمه: - الزوج ... مات ..

وطفقا يتحدثان معه عن الجارة وعن عشيقها كلَّ ليلة ولمدة أسبوع.

وذات ليلة، قامتْ بزيارةٍ أخرىٰ. كانت أجملَ من ذي قبل، ولا تحزن علىٰ شيءٍ قطُّ. ولو لمجرد التظاهر بالحزن.

خاف من أمه التي قد تسأل الجارة عن الرجل. لهذا، حاول أن يُجَنِّبَهَا ذلك. فَحَرِصَ أن يَرتو إلى عينيّ أمه، ويُحذِّرُهَا من الوقوع في أخطاء. نعم ينبغي أن يكون كلُّ شيءٍ في وضعه الصحيح، ولكن ليس مع هذه الجِارة. إلّا أرادت هي بنفسها أن تُصَرِّح بذلك. يمكنها أن تُصَرِّح لهم. إلا أنها لم تقل شيئاً . انتظر الفتىٰ خمسَ دقائق كاملة، وفي النهاية أدرك أنها لاتريد أن تُصَرِّح بشيء.

تناول قبعته وقال: - أنا ذاهب يا أمي إلى المكتبة.

قالت أمه: - وهو كذلك.

لم يُلقِ عليها تحية المساء. ولم يلتفت إليها وعرفتْ هي أيضاً السرَّ في هذا.

وبعد ذلك، لم تعد تعزف على (البيانو) في أوقات الصبح، علىٰ الإطلاق. وإذا ما عَزَفَتْ على (البيانو) في وقتٍ ما، فإنها لاتعزف الأغنية التي كانت تعزفها له.

الراهب (ماتيو)، من (تينيسي)، هو أصغر الرهبان. وهو يُشبه أيَّ رجل، ولايُشبه رجلَ الكنيسة. كان الرهبان الآخرون مُعجَبين به، وإن احسُّوا بتميزهم. وهم جميعاً أساتذة في شتىٰ المجالات. أما فيما يخصُّ الشاب (جاك تووي)، فقد كانوا مُتبَرّمِيْنَ منه.

يبلغ (جاك تووي) احدىٰ وعشرين سنة، وجسمه ضخم جداً، ذات يوم، رفع الراهب (جارسيا) عن الأرض وأبقاه فترة هكذا. والراهبُ (جارسيا) رجل وقور جداً، ووزنه لايتعدّىٰ المائة وخمسين رطلاً. ولم يَشْرع الشاب في رفع الراهب (جارسيا) عن الأرض إلا بعد أن أعطاه الأذن.

قال الشاب: - أيها الراهب جارسيا، هل تعلم أني أستطيع أن أرفعك عن الأرض، وأُبقيكَ مرفوعاً؟.

وقد اندهش الراهب جارسيا، بطبيعة الحال، بعض الشيء.

قال: - لا ، لا تطرأ هذه الفكرة على بالي أبداً.

قال جاك تووي: - إني أقدر ، فهل تأذن لي؟.

قال الراهب جارسيا: - كما تشاء.

قال الشاب: - لن أُصيبك بأذىً.

قال الراهب جارسيا:- بالله عليك، أنزلني من فضلك. إني أصدقك.

قال الشاب:

- هذا أمر سهل بالنسبة لي. إني لاأرغب في أن أهبط بك لأسفل. وأرىٰ إن بإمكاني الابقاء عليك هكذا ولمدة ساعة.

قال الراهب جارسيا: - أُفَضّل أن تدعني أنزل.

أرجع الشابُ الراهبَ إلى الأرض بِرِفْقٍ زائد، كما لو أن الراهبَ يُمْكِن أن ينكسر إذا اهتز.

أما الآخرون فقد كانوا يتناولون طعام الغذاء في ضوء الشمس، وهم جلوس على درجات سُلّم المبنىٰ، من الخارج. ولم يتواجد الشاب معهم، لأن الراهب ماتيو كان خارج البلدة. وظلّ الراهب جارسيا في الطابق العُلوي ساعة الغداء، آملاً بأن يقرأ شيئاً. وبعد ما رفعه الشاب ثم أنزله، شعر الراهبُ جارسيا بأنه غيرُ راضٍ عن نفسه تماماً. وشعر بأهمية ممارسة نوع من التمارين الرياضية حتى يُقَوّي جسمه. إذ أن الإنسان يتحلّى بالوقار. إذا وُضِعَتْ رُوحهُ في جسمٍ قوي. وحَسَدَ الشاب على قوته.

قال: - حسناً سوف تلتمس لي العذر، فأنا مشغول الآن بالقراءة.

قال الشاب: - ألا تتعب من القراءة طوال الوقت؟

انشغل الراهب جارسيا بكتابه، وتوجَّه الشاب إلى النافذة حيث ظلّ واقفاً بعضاً من الوقت. رفع الراهب جارسيا عينيه من على كتابه وأخذ يراقب الشاب.

قال الفتى: - أيها الراهب جارسيا.

- نعم.

- هل شاهدتَ الفندق في الجانب الآخر من الشارع؟

- أعرف أنه هناك. ماذا بشأنه؟

عرف الراهب جارسيا كلَّ ما يخصُّ الفندق الذي يقع في الجانب الآخر من الشارع. وكلُّ الرهبان عرفوا ذلك. أنه أحد أماكن عديدةٍ من نفس النوع في الشاطئ الشمالي.

قال الشاب:- أعتقد أن بعض الفتيات يُقمْن في الطابق العُلْويّ.

- هل هذا صحيح؟

- اعتقد ذلك. وفي كلِّ يومٍ أرىٰ رجالاً يأتون ويذهبون. هل رأيتَ فتياتٍ في وقتٍ ما؟

- لا أعتقد أني رايتُ فتيات.

- لقد رأيتُ واحدة منهن مساء أمس. كانت رقيقة جداً، وهذا ما استعصى عليَّ فهمه.

قال الراهب: - ماذا تقصد؟

قال الشاب:

- أقصد، لماذا لاتتزوج زميلاً شاباً بدلاً من ذلك؟ هناك الكثير من الزملاء الشباب الذين يُحبوُّن الاقتران ببنتٍ تُشبهها، إذا هم عثروا علىٰ بنتٍ حلوة. إنها رقيقة جداً. أيها الراهب الشاب جارسيا، إذا لم تكن راهباً، وأحببتَ فتاةً تُشبهها، فهل تُفضل أن تتزوجها بأيّ طريقة؟

قال الراهب: - لا أعرف.

- لاريْبَ أني فوجئتُ بما رأيتُ عليها من صِبَا ورِقَّة. إنها بنت حلوة. لقد رأيتها وهي تخرج من الفندق. أنا واثق أنها بنت حلوة. لقد ابتسمتْ لي. وقُدِّر لي أن أقع في حبِ فتاةٍ مثلها.

قال الراهب:

- أجل، هذا هو السبب الوحيد لِمَا أنتَ فيه من اكتئاب.

قال الشاب:

- أشعر بالتعاسة الآن. لم أكن في حالة حبٍ معها أو مع غيرها، لكن هذا جعلني أكابد عَنَاء التفكير في أنها تحبُّ أيَّ شخصٍ يدفع لها المقابل. هل صعدتَ من قبلُ في أحد هذه الأماكن؟.

قال الراهب: - لا، أُقسم لك.

- كلُّ ما أعنيه أن تتأمل ما حولك. ربما استطاع راهبٌ أن يُؤدِّي دوراً في هذا.

قال الراهب: - لستُ خائفاً.

- لاأعرف، وإن يُراودني إحساسٌ بأن دوراً ما يجب أن أُؤدِّيه.

قال الراهب: - ماالذي يُمكنك عمله؟.

- لا أعرف .

وبعد الغداء، صعد الرهبان إلى الطابق العُلْوِي، وواصلوا عملهم. وكان العامل الآخر الذي اشتغل مع الشاب (جاك تووي) في محل الخمور، هو رجل متقدم في السن يُدْعىٰ (أنجلو فانوتشي)، ولم يكن راهباً. وهو في السابعة والخمسين، وقد دُمِّرتْ حياته إثْرَ حادثة مشؤومة وقعتْ له منذ عدة سنوات.

كان الشاب يقول: - يا أنجلو، هل رأيتَ الأسطول وهو يتحرك؟.

يقول الرجل:

- ماذا يهمُّني من الأسطول؟ هل سيتجه إلى بنك إيطاليا ويُحْضِر دولاراتي الثلاثة عشر ألفاً؟.

يقول الشاب: - وهل عَبَرْتَ ، يا أنجلو، جسرَ البوابةِ الذهبية؟

يقول الرجل:

- لماذا يتحتَّم عليَّ عبورُ الجسر؟ وبمعنىً آخر، هل سأعثر على دولاراتي الثلاثة عشر ألفاً؟... يوماً ما، سأنال تلك المرأة.

ثم شتَم بالايطالية بحِدّة.

وبعد انتهاء العمل في ذلك المساء، مَكَثَ الشاب في مصنع الخمور حتى انصراف كلّ الرهبان إلى البيت. وقد راقبه كلٌّ من البواب والحارس الليلي (لويس جيتاس)، وهو واقف عند النافذة.

قال له الحارس: - لماذا لاتذهب إلى البيت؟

- سأذهب بعد فترة قصيرة.

قال البواب: - ماذا تنتظر؟

قال الشاب: - لاشيء.

لمح رجلاً مسرعاً نحو المدخل، ضاغطاً الزر، وفي لحظةٍ، أدار مقبض الباب، ففتحه، وأسرع إلى الطابق العُلْوي.

أحسَّ بمقتٍ شديدٍ من الرجل، خشيةَ أن يختار الرجلُ البنتَ التي رآها بالأمس. وعلى التوّ، تملكته رغبة في أن يعبر الشارع، ويصعد إلى الطابق العُلْوي، ويطرد الرجلَ من المكان.

وفي اليوم التالي، عاد الراهب ماتيو من البلدة إلى مصنع الخمور. وقد رتَّبَ شراءَ عِدّة أطنانٍ من العنب، من أصحاب مزارع العنب بقرية (سان جواكين).

وفرح الشاب لعودته. وعندما اختلى بالراهب، قال له: - أيها الراهب ماتيو، أنت تعرف هذا المكان، الواقع في الجانب الآخر من الطريق.

- بكلِّ تاكيد. لاتُحدثني عن رغبتك في أن تأخذني معك لصرف بعض النقود.

ضحك الشاب. وانه لمن دواعي السعادة أن تتحدث مع راهبٍ مثل الراهب ماتيو. قال للراهب:

- أود أن أصْحَبَكَ معي إلى هناك.

- حسناً ، رغم يقيني بأنه ينبغي عليَّ - أيضاً- ألا أذهب .

- لا أقصد أن تَصْرِفَ نقوداً. هناك فتاة في الطابق العُلْوِي أودُّ التحدث معها.

قال الراهب: - في أيِّ شيءٍ تريد أن تُدير الحديث معها؟

- حسناً، فأنا لاأصدق أنها يمكن أن تتواجد في مثل هذا المكان. إني أتميَّز غيظاً.

- من تكون الفتاة؟

- لاأعرف. لقد رأيتها في الشارع منذ يومين. هل ترىٰ أنه يُمكنك الصعودُ معي إلى هناك؟

قال الراهب: - في أيِّ شيءٍ تريد التحدث معها؟

قال الشاب: - لاأريدها أن تَمْكُثَ في مثل هذا المكان.

- لا أعتقد أن الفتاة مستعدة لسماع حديثٍ كهذا.

- لقد ابتسمتْ لي.

قال الراهب:- ربما تبتسم لكلِّ رجل. ومن الممكن أن تبتسم لي كذلك. وأنت لاتربطك بها علاقة حب، أليس كذلك؟

قال الشاب: - لم أرتبط بعلاقة حبٍ قطُّ. ولا أعرف كيف تكون حالتي عندما أكون في حالة حب . إني أشعر بالألم لدىٰ كلِّ إنسان. وما

أريد أن أعرفه هو نوعُ عَالَمٍ هذا المكان الذي تعيش فيه فتاة مثلُها؟ هل تصعد معي إلى هناك الليلة، بعد انتهاء العمل؟

قال الراهب: - لماذا لاتحاول أن تنسى أنك رأيتها ذات يوم؟

- أعتقد أنه من الواجب أن أفعل هذا، لكنني منذ رأيتها ذات مرة، أحسستُ بالألم لدى كلِّ إنسان.

- لماذا لاتصعد وحدك؟

- أخاف أن أصعد وحدي.

- ممَّ تخاف.؟

- لا أدري، ساكون في وضعٍ أفضل إذا رافقتني.

فكَّر الرهب في الموضوع للحظة، قال: - وهو كذلك . آمُلُ ألا يرانا أحد. ينبغي أن نكون في منتهى الحذر.

وبعد انتهاء العمل في ذلك المساء، سار الشاب والراهب ماتيو حتى أظلمت الدنيا، فرجعا إلى مصنع الخمور، وعندما لم يجدا أحداً في انتظارهما، أسرعا يعبران الطريق متجهين إلى باب الفندق، وضغط الراهب زرَّ جرس الباب. وكان الاثنان خائفين، سأل الشابُ الراهبَ: - هل تصعد؟

- مازالت أمامنا فرصة للانصراف. ربما كنَّا في وضعٍ أفضل.

سمعا رنين الجرس الكهربائي. أمسك الراهب بمقبض الباب، وفتح الباب بمقدار بوصتين أو ثلاثاً.

قال الشاب: - هناك شخص هَبَطَ إلى الشارع.

دفع الراهبُ البابَ ليفتحه، وأسرع الشابان يصعدان السلالم.

ثمّة رائحةٌ مقززة لبودرةٍ وعطرٍ منتشرين في الجو. وظهرت أعلى السلالم امرأة في منتصف العمر، مرتدية ثوباً أخضر شديد الالتصاق

بجسمها، وبلا أكمام... قالت: - مساء الخير، ياأولاد.

أجاب الراهب ماتيو: - مساء الخير.

ابتسمت وهي تُلقي نظرة علىٰ ملابس الراهب. ثم قادتْ الشابين إلى غرفة الانتظار، فلم يجلسا.

قال الراهب:

- يُعجبني دائماً ما أجده بداخل هذه الأماكن.

لم يختلف الفندق عن أيّ فندق صغير، فيما عدا ما تشعر به. فرائحة المكان ومعرفتك السابقة عن مثْل هذا النوع، يجعلانك تُحِسُّ علىٰ التوّ بمشاعر متباينة. فينتابك إحساس بالخجل والغباء والدهشة والأسف، علاوة على أنك سوف تشعر بأن المعيشة فيه كريهة. ومن ثَمَّ، ولكونك عَرِفت، فسوف يتأكد لك استحالة أن تعيشَ عِيْشةً مُرضِيَةً، مالم تكن أدنىٰ معيشةٍ ممكنةٍ، أكثرَ صدقاً وواقعيةً من تلك المعيشة المَرْجُوّة.

عندما دخلتْ الفتيات الغرفة، رأين شابين منفعلين، أحدهما راهب كاثوليكي. فارتبكت الفتيات واضطرِرْنَ ألا يُظْهِرْنَ ما يُعَدُّ جزءاً مهماً في عملهن، كخفَّة الدم المَرِحَة، مع ما فيها من بعض التصنُّع، وبعضِ الصدق، والجرأة، والطيش، والبشاشة. واتسم سلوكهنَّ بعدم الكِيَاسة فيما استكنَّ بدخائلهن وما يظهر منهن.

وترجعُ سذاجةُ البنات لِمَا صادفنه عند لقائهن بالشابين. وبدا مظهرهنَّ مثل ثلاثِ أخوات. والاحساسُ التلقائيُّ للراهبِ كان احساساً بالرداءة من حوله، وبدلاً من تأثره بالفتيات كما توقع، تولّد لديه احساس بأنه الآن أكثر حصانة ضد الإثم من أيّ وقتٍ مضىٰ في حياته. وأُصبح فعلاً منشرحَ الخاطر عمَّا كان عند مجيئه.

علىٰ أيِّ حال عَجِزَ الشاب عن تحويل عينيه عن الفتاة التي ابتسمت له. الآن، وفي هذا المكان، تبتسم له، وحاول أن يَجِدَ تفسيراً لذلك. وخَالَجَهُ احساسٌ بأن ما أصابها من خَجَلٍ حين التقىٰ بها في الطريق، لايُلازمها حين تجيء إلى هذا المكان، ويستحيل أن يزول عنها.

نظر الراهب إلى الفتيات ثم إلى الشاب، وأومأ بنظرة تساؤلٍ منه، إذا كان يرغب بالتحدث مع الفتاة. فأجاب الشاب بإيماءةٍ خفيفةٍ من رأسه.

وأحس الشاب بسعادةٍ غير عادية. أخيراً قال:

- نحن نعمل في مصنع الخمور في الجهة المقابلة. وقد حَسِبْنا - صديقي وأنا -أننا سندخل ونُحيِّي، ونسأل إذا كان ينبغي إحضارُ بعضِ النبيذِ لكم.

وزال الإحساس بالسَمَاجة الذي كان يستشعره كلٌّ فرد. وبدأت الفتيات والشاب يتحدثون ويضحكون. قدَّم الشاب للفتيات لفائف الدخان، فدخنت الفتيات ما عدا الفتاة التي ابتسمت للشاب. سأل الشاب الفتاة إن كان لديها رغبة في التنزُّه معه ذات مساء، فقالت له أنها قد ترغب. وكان سعيداً جداً.

وَعَدَ الراهبُ والشابُ أن يعودا حالاً بالنبيذ، ثم انصرفا.

وفي الطريق، أحسَّ الشابان بالأريَحِيـَّة ، وفي نفس الوقت - لسببٍ ما - بالأسف العميق.

قال الشاب: - إنهن فتيات مدهشات، أليس كذلك؟.

قال الراهب:

- أجل، لاأعتقد أنني قابلتُ فتيات سليمات النِيَّة مثلهن.

- أريد أن أشكرك لذهابك معي. فلو لم أذهب، لشعرتُ بالندم طوال الوقت.

- أنا مسرور بك، لأنك طلبتَ مني أن أذهب معك.

وأخذا يجوبان الشارع حتى اجتازا مَبْنَيَيْن، وفجأة أراد الشاب أن يتقيَّأ. أخذ يتوجع، وفَهِمَ الراهب - لأول مرة في حياته- مدى المعاناة لإنسانٍ تتملكه رغبة في أن يُجاري فظاظة الحياة، التي يُقاسي منها كلُّ إنسان.

كاد عمّي مِليك أن يكونَ أسوأ مزارعٍ ظهرَ حتىٰ الآن. كما أنه واسع الخيال والتخيُّل لمآربه الشخصية. الجمال مبتغاه. أراد أن يغرسه ويراه وهو ينمو. وبمفردي، زرعتُ لعمي أكثرَ من مائة شجرة رمانٍ في سنةٍ واحدةٍ خَلَتْ من هاتيك السنين الخوالي المُحَلِّقة في الدنيا بالشِعْرِ والشباب. وأدرتُ محراث «جون دير» أيضاً، وكذلك فعل عمي. امتلأت الدنيا كلُّها بالجمال الصافي، وليس مجرد زراعة. واستهوت عمي فكرةُ غرسِ الأشجار ومراقبتها وهي تنمو.

ولكن قُدِّر لها ألا تنمو، لرداءة التربة. فالتربة صحراوية، جافة. لوَّح عمي إلى الستمائة والثمانين فداناً من الصحراء التي اشتراها، وقال بأرمنيةٍ قريبة من الشعر، يفطن إليها كلُّ فرد:

– هنا، في قلب هذه الكآبة الموحشة، ستزهر حديقةٌ من الأرض. الينابيع ستُظْهِرُ إلى حيّزِ الوجود كلَّ الأشياءِ الجميلة.

كنتُ أولَ من رأىٰ الأرض التي اشتراها، والقريبَ الوحيدَ له. وعرف أنني شاعر بالفطرة، ورأى أنه ينبغي عليَّ فهم النَزْوة الجارفة التي ستؤدي

به إلى الخراب المدمِّر. وقد فهمت. فطنتُ إلى أن ما اشتراه أرضٌ صحراوية لاقيمة لها. كانت بعيدة عن كلِّ ما يَمُتُّ للحياة بِصِلَة، عند سفح جبال (سييرا نيفادا)، مليئة بكلِّ أنواع النباتات الصحراوية التي تنبتُ دائماً في الأرض الساخنة الجافة. انتشرتْ فيها كلاب البراري، والسناجب، والضفادع القرناء، والثعابين، وكائناتٌ حيَّةٌ أخرىٰ أصغرُ حجماً. أما الفضاء الذي يُظلّل هذه الأرض، فلا يُعْرَفُ إلا بتواجد الصقور، والنسور، والشواهين. إنها أرض العزلة، والفراغ، والحقيقة، والوقار. والطبيعة في أوج كبريائها، وجفافها، وعزلتها، وإبداعها.

خرجنا- عمي وأنا- من مركبة (الفورد)، في منتصف أرضه، وبدأنا السير على الأرض الجافة. قال: - هذه أرضي.

مشىٰ ببطء، يجوس في التربة الجافة، زحفت ضفدعة قرناء علىٰ الأرض، عند قدمي عمي، أطبق عمي علىٰ كتفي، وتوقف ضارعاً. قال: - ماهذا الحيوان؟.

قلت: - هذه السُحْلِيَة الصغيرة جداً؟.

قال عمي: - هذا الفأر ذو القرون، ماذا يكون؟.

- لاأعرف بالضبط. نحن نسميها ضفادع قرناء.

واستقرت الضفدعة القرناء في مكانٍ يبعد حوالي ثلاثة أقدام، وأدارت رأسها. نظر إلىٰ الحيوان الصغير في ازدراء. قال: - أهو سام؟.

- عندما يُؤكل؟ أم عندما يعضّك؟!.

قال عمي: - في الحالتين؟.

- لا أظنُّ أن أكلَهُ مُستَحَب. أعتقد أنه ضار. لقد اصطدتُ الكثير منها. وتغدو حزينة في القيد، ولكنها لاتعضُّ أبداً. هل أُمسِكُ بواحدة؟

- تفضل.

التقطتُ ضفدعة قرناء، ورفعتها لأعلى، بينما عمي يرنو إليها. قال:

- احترس. هل أنتَ متأكد من أنها غير سامة؟

- أمسكتُ الكثير منها.

اقتربتُ بالضفدعة القرناء نحو عمي، فجاهد كي لايبدو خائفاً. قال:

- حيوان صغير لطيف، أليس كذلك؟

وكان صوته متقطعاً. قلت: - هل تحب أن تُمْسِكها؟

- لا، أمسكها أنت. لن أقترب من مثل هذا الحيوان أبداً. يبدو أن له عينين. أعتقد أنه يستطيع أن يرانا.

- أفترض أنه يستطيع. إنه يتطلع إليك الآن.

نظر عمي إلى الضفدعة القرناء، مُسَدّداً نظراته إلى العينين. سددت الضفدعة القرناء نظراتها إلى عيني عمي. وفي نصف دقيقة، نظر كلٌّ منهما إلى الآخر في عينيه، ثم ادارت الضفدعة راسها جانبا، وحوّلت نظرتها إلى الأرض. فتنهد عمي في ارتياح.

قال :- أعتقد أن ألف ضفدعةٍ منها تستطيع أن تقتل رجلاً.

- إنها لاتتحرك قطُّ بأعدادٍ ضخمة، ونادراً ما تُرى أكثرُ من واحدةٍ في وقتٍ واحد.

- ربما تستطيع ضفدعة كبيرة أن تعضَّ رجلاً فيموت.

قلت : - إنها لاتكبر، فهي لاتكبر أكثر من هذا الحجم.

- يبدو أن عينيها تُخيفان الكائنات الصغيرة. هل أنتَ متأكد من أنها لاتظهر في شكل جماعة؟

- أعتقد أنها تنسى كلَّ هذا في لحظة الاجهاز عليها.

وقلت : - لا أظن أن لها ذاكرة قوية.

أنتصب عمي في وقفته، متنفساً في عمق. قال :

- إرْمِ المخلوقَ الصغير. يجب ألا نكون قساةً على مخلوقات الله البريئة. إذا لم تكن سامة، ولا تكبر أكثر من حجم الفأر، ولاتتحرك بأعدادٍ كبيرة، ولاقدرة لها على الكلام، فلْيَعُدْ المخلوقُ الضئيلُ إلى الأرض. ولنكن رُحَمَاءَ بهذه المخلوقات التي تعيش معنا على الأرض.

قلت : - نعم، ياسيدي.

وضعتُ الضفدعة القرناء على الأرض. قال عمي:

- على مهلك. ولِيَأمَنَ من الأذىٰ هذا الساكنُ الغريبُ في أرضي.

زحفت الضفدعة القرناء بعيداً،قلت :

- إن هذه المخلوقات الصغيرة تعيش في تربةٍ كهذه لعدة قرون.

قال عمي : - قرون؟ هل أنتَ متأكد؟.

- لستُ متأكداً، لكني أتخيَّلُ هذا. فهيَ تبقىٰ هنا كيفما اتفق.

نظر عمي إلى أرضه التي تُحيط به، وإلى نبات الصبَّار، وإلى الفروع الكثيفة الخارجة منه، وإلى السماء أعلىٰ رأسه. صاح: - ماذا تأكل كلَّ هذا الزمن؟

- لاأدري.

- ماالذي تتوقعه أكلاً لها؟.

خَمَّنْتُ : - حشرات.

صاح عمي : - حشرات؟ مانوع الحشرات؟.

- هي ضئيلة الحجم للغاية، لاأعرف أسماءها. يمكنني التَوَصُّلُ إلىٰ معلوماتٍ عنها من المدرسة غداً.

واصلنا السير على الأرض الجافة. عند وصولنا إلى بعض الفتحات في الأرض، وقف عمي فوقها وقال : - ما الذي يسكن هنا، أسفل الفتحة؟.

- كلاب بريَّة.

- ماهي؟.

- حسناً، إنها تُشبه الفئران. وتنتمي إلى فصيلة القوارض.

قال عمي : - ماذا تفعل كلُّ تلك المخلوقات على أرضي؟

- هي لاتعرف أنها أرضك، فقد عاشت هنا منذ زمانٍ طويل.

- لا أظن أن تلك الضفدعة القرناء قد صادفتْ عَيْنَ رجلٍ من قبل.

- هذا ما أراه أنا أيضاً.

قال عمي : - هل تعتقد أني أفزعتها. أو فعلتُ شيئاً من هذا القبيل؟

- لا أعرف، إطلاقاً.

- إذا رأيتَ أني لا أقصد، فسأقوم ببناء منزلٍ هنا ذات يوم.

- لستُ أدري.

قال عمي : - طبعاً، سأقوم ببناء منزلٍ ضخم.

قلت : - ربما يكون بعيداً جداً.

- إنه يبعد ساعة واحدة فقط عن المدينة.

- إذا سرتَ خمسين ميلاً في الساعة.

- المدينة لاتبعد خمسين ميلاً . إنها تبعد سبعة وثلاثين.

- حسناً، لكنك تستغرق زمناً قليلاً كي تخرج من الطرق الوعرة.

قال عمي:- سوف أبني لي أجملَ منزلٍ في العالم، ما الذي يعيش أيضاً على هذه الأرض؟.

قلت : - حسناً، هنالك ثلاثة أو أربعة أنواع من الثعابين.

- سامة أو غير سامة؟.

- غالباً غير سامة. غير أن الثعابين ذات الأجراس تكون سامة.

قال عمي : - هل تقصد أن تقول أن هناك ثعابين ذات أجراس تعيش في هذه الأرض؟

قلت : - هذه الأرض من الأراضي التي تسكن فيها الثعابين ذات الأجراس.

- كم عددها؟.

- في كلّ فدّان؟ أم في الستمائة وثمانين فدّاناً.؟.

- في كلّ فدّان.

- حسناً، أظن أن هناك حوالي ثلاثة في كلّ فدّان، تقاوم التغيير.

صاح عمي: - ثلاثة في كلّ فدّان؟ تقاوم التغيير؟

قلت: - ربما اثنان فقط.

- كم يبلغ عددها في المساحة كلّها؟

- حسناً، لنفرض أنها اثنان في كلّ فدّان. فيبلغ عددها في الستمائة وثمانين فدّاناً حوالي الألف وخمسمائة.

قال عمي : - ألف وخمسمائة من الثعابين.

قلت: - الفدّان كبيرٌ المساحة إلى حد ما، وثعبانان في كلّ فدّان ليسا بالكثير. أنتَ قد لا تراها غالباً.

- ماذا ترى هنا أيضاً من الأنواع السامة؟

- لا أعرفُ غيرَ ماذكرت. كلُّ المخلوقات الأخرى غيرُ ضارة. كما أن الثعابين ذات الأجراس ضارة إلى حد ما، ما لم تَخطُ فوقها.

قال عمي : - حسناً. أنتَ تمشي وتراقب الأرض التي تمشي فوقها.
وإذا ما شاهدتَ أفعىً ذات الأجراس فلا تَخْطُ فوقها. لاأريدك أن تموت
وأنت في سن الحادية عشرة.

قلت : - سأشاهد وأنا حريص.

استدرتُ وعدتُ إلى الفورد. لم أر أية أفاعٍ ذاتِ أجراس، أثناء رجوعي.
استقلّينا العربة وأشعل عمي لفافة دخان. وقال:

- أنوي إنشاء حديقة لهذا الخَرَاب الموحِش.

- أجل، ياسيدي.

- أعرف مشاكلي، وأعرف كيف أحلُّها.

- كيف؟.

قال عمي: - هل تقصد الضفادع القرناء، أم الأفاعي ذات الأجراس؟

قلت : - أقصد المشاكل.

- حسنا، أول شيءٍ سأقوم به هو استئجار بعض المكسيكيين
ليشتغلوا.

- ماذا يشتغلون؟

- ينظفون الأرض، ثم أجعلهم يحفرون للحصول على المياه.

- أين يحفرون؟

قال عمي : - في العمق. وبعد ما تحصل على المياه، أجعلهم يحرثون
الأرض، ثم يزرعون.

قلت : - ماذا يزرعون؟ قمحاً؟

صاح عمي : - القمح ؟ ماذا تريد بالقمح؟ رغيف الخبز بخمس
سنتات. إني أنوي زراعة أشجار الرُّمَّان.

قلت : - بكم الرُّمّان؟.

- الرُّمّان غير متداول في هذه البلدة.

- هل هذا كلُّ ما تنوي زراعته؟.

- أفكر في زراعة أنواعٍ أخرى مختلفةٍ من الأشجار.

- أشجار خوخ؟.

- في حدود عشرة أفدنة.

- وماذا عن المشمش؟.

قال عمي: - في كلّ الأحوال، المشمش فاكهة حلوة. شكلها حلو، وذات طَعْمٍ سائغ. سأزرع من أشجار المشمش في حدود عشرين فداناً.

قلت : - آمل ألا يُواجِهَ المكسيكيون صعوبةً في استخراج المياه. هل هناك مياه في جوف الأرض؟.

- بالطبع. المهم البداية. وسأُدرِّب الرجال على اتخاذ الحِيْطة من الأفاعي ذات الأجراس.

وقال : - أشجار رمان، وخوخ، ومشمش... ماذا أيضاً؟

- التين؟.

قال عمي : - ثلاثون فداناً للتين.

قلت : - وماذا عن التوت؟،لشجرة التوت منظر لطيف جداً.

- التوت...

وحرك لسانه في فمه، وقال: - شجرة لطيفة. أعرف أنها شجرة مثمرة في بلدتنا القديمة في أرمينيا. كم عدد الأفدنة التي تقترحها؟.

- حوالي عشرة.

- وهو كذلك. ماذا أيضاً؟.

– وأشجار الزيتون لطيفة.

قال عمي : – نعم، هي كذلك. إنها من ألطف الأشجار. حوالي عشرة أفدنة لأشجار الزيتون. وماذا أيضاً؟.

– حسناً، لكني لا أعتقد أن أشجار التفاح يمكن أن تنمو في هذه الأرض.

قال عمي: – لا أظن. على كلّ حال، أنا لا أحب التفاح.

وبدأ يُدير العربة، فابتعدتْ بنا عن الأرض الجافة، إلى الطريق الجاف. تحركتْ ببطء حتى وصلنا إلى الطريق العام، ثم بدأنا نتحرك بسرعة أكبر. قال عمي : – عندما نَصِلُ البيت، لا تذكر شيئاً عن هذه المزرعة للأهل.

– أجل يا سيدي. (وفكرتُ : مزرعة؟ أيُّ مزرعة؟!)

– أريد أن أفاجئهم. أنتَ تعرف جدتك. سأعمل على تنفيذ خططي، وعندما أُنفِّذُ كلَّ شيء، سآتي بالعائلة كلِّها إلى المزرعة، وأفاجئهم.

– أجل ياسيدي.

قال عمي : – بدون تدخلِ من إنسان.

قلت : – أجل، ياسيدي.

حسناً، لقد ذهب المكسيكيون للعمل، فنظَّفوا الأرض، ونظَّفو حوالي عشرة أفدنة منها خلال شهرين تقريباً. اشتغل سبعة منهم بالجواريف والفؤوس. وهم يجهلون الموضوع برُمَّته. فالأمر جِدُّ غريب، لكنهم لم يتذمروا قط. كانوا يتقاضون أجورهم فقط. كانوا أخوين وأبناءهما. وذات يوم، سأل الأخُ الأكبرُ (دييجو) عمِّي، بمنتهى الأدب، عمَّا هو مفروض أن يشتغلوه. قال: – من فضلك ياسيدي، سامحني: لماذا نقطع نبات الصبار؟

قال عمي: - أنوي زراعة هذه الأرض.

سأل المكسيكيون الآخرون ديبجو بالمكسيكية عمَّا قاله عمي، فأخبرهم ديبجو. لم يصدقوا. واستمرُّوا يقطعون نبات الصَبَّار.

علىٰ أيِّ حال، فقد ظلَّ نبات الصبار علىٰ حاله لفترةٍ قصيرةٍ فقط. والارضُ التي اقُتلِعَ منها أولاً، امتلأت بالفعل بالصبَّار الغَضِّ وفروعه الجديدة. واستقبل عمي هذه الملاحظة بدهشة.

قلت :- يتم الحرث العميق للتخلص من الصبَّار. يجب أن تقتلعه.

تحدَّث عمي في كلِّ التفاصيل مع (رِيَان)، الذي عُهِدَ إليه بالأعمال التنفيذية لمشروع المزرعة. فأخبره (رِيَان) بأنه ينبغي ألا يُضيِّع وقته مع الخيل. فالشيء العصري الذي يُؤَدِّي المهمة، هو أن تُدِيْرَ جرَّاراً قوياً ليفك الأرض، فيُؤدي عملَ سنةٍ في يومٍ واحد.

لذا، اشترىٰ عمي جرَّاراً (جون دير). كان رائعاً. وعن الناحية الميكانيكية فقد تعلَّمها دييجو المكسيكي من رِيَان، وأصبح يعرف كيف يعمل على الجرَّار. وفي اليوم التالي، وصلنا، عمي وأنا، إلىٰ الأرض، وشاهدنا الجرَّار عن بُعْدٍ وسطَ الأرضِ اليَبَاب، واستطعنا أن نسمعه في فراغ الصحراء الرهيب. كان صوته مزعجاً. كان مزعجاً. ورأىٰ عمي ذلك أمراً عجباً.

قال : - التقدم. هاكَ عصركم الحديث.

وقال : - منذ عشرة آلاف سنة، كان لابدَّ من استخدام مائة رجلٍ في اسبوع، ليؤدُّوا نفسَ مايُؤدِّيه جرَّارٌ واحدٌ في اليوم.

قلت : - منذ عشرةِ آلافِ سنة، تقصد أمس.

- أياً كان، فليس هنالك ما يُماثل مستلزمات الراحة هذه.

- الجرَّار ليس مناسباً.

قال عمي : - ماذا هو اذن؟ ألا يجلس السائق؟

قلت :- بل، إنه لا يستطيع الوقوف بشكلٍ مريح.

- إنهم يدعونك تجلس في أيِّ وقت. وهذا مناسب. هل في مقدورك أن تُصَفِّر؟

- نعم، ياسيدي. ما الأغنية التي تريد سماعها؟

قال عمي : - أغنية؟، لا أريد سماع أغنية. أريدك أن تُصفّر لهذا المكسيكي الذي يقود الجرّار.

- لمِ؟

- لاتشْغِل بالك بالسبب. صفّر فقط. أريد أن أُعلِمُه أننا هنا، وأننا مسرورون بعمله. ربما يحرث عشرين فداناً آخر لنا.

- نعم، ياسيدي.

ادخلتُ أصبعي في فمي، ونفختُ بكلِّ جهدي. كان الصفير سليماً وعاليا. ومع ذلك، لم يَبْدُ ما إذا كان ديبجو قد سمعني. كان بعيداً جداً، إلى حدٍ ما. على أيِّ حال، فقد كُنّا نمشي في اتجاهه، لذا لم أستطع معرفة السبب الذي من أجله أراد عمي أن أُصَفِّر له. قال : - مرة ثانية.

وصفّرتُ مرة ثانية، لكن ديبجو لم يسمع.

- بصوتٍ أعلى.

وبذلتُ أقصى جُهدٍ لي في هذه المرة، فوضع عمي يديه على أذنيه. وبدا وجهي شديد الاحمرار. وفي هذه المرة، سمع المكسيكي. فأبطأ الجرّار، واستدار به، وبدأ يحرث الحقل في خط مستقيم وهو يتجه نحونا.

قلت :- هل تريد منه أن يشتغل هكذا؟.

قال عمي : - ما مِنْ نتيجة.

وفي أقل من دقيقة ونصف، وصل الجرّار والمكسيكي. بدا على المكسيكي الابتهاج. أزال القذارة والعرق عن وجهه، ونزل من على الجرّار.

قال : - ياسيدي، هذا رائع.

قال عمي: - إني مسرور به، مثلك.

سأل المكسيكي عمي: - هل تحب أن تركب عليه؟

تردّد عمي، والتفتَ إليّ . قال : - تقدم أنت. واركب قليلاً.

تقدم ديبجو إلى الجرّار. وساعدني. جلس على المقعد المعدني. ووقفت خلفه. مُمْسِكاً به. وبدأ الجرّار يهتز، ثم قفز، ثم بدأ يتحرك. تحرك بهدوء، وأحدث جَلَبَةً عالية. دار المكسيكي دورة كبيرة، وأتى بالجرّار خلف عمي، وقفزتُ منه.

قال عمي للمكسيكي: - حسناً. عُدْ ثانية لعملك.

قاد المكسيكي الجرّار عائداً إلى الأرض التي كان يحرثها.

لم يحصل عمي على مياهٍ من جوفِ الأرضِ لعدةِ شهورٍ خَلَتْ. وقد حفر الآبار في كلِّ مكان، لكن المياهَ لم تنبثق من الآبار. ومن ثم ، استخدم المضخات الكهربائية أيضاً، وحتى هذه لم تُفْلِح في استخراج المياه. وقَدمَ مِن (تكساس) خبيرُ مياهٍ يُدعىٰ (روي)، مصطحباً معه أخويه الشابين. وبدأوا يفحصون الأرض. ثم أخبروا عمي أنهم استخرجوا له المياه، واستغرق ذلك ثلاثة شهور، كانت المياه عَكِرَةً ولم تتوافر بالكثرة المَرْجُوَّة. ثمَّة مياهٌ عَكِرة قليلة جداً. قال الخبيرُ لعمي أن الوضع سيتحسن بمرور الوقت، ورجع إلى تكساس.

الآن نُظِفَتْ نصفُ الأرض وحُرِثَتْ، وتواجد الماء. لذا فقد آن الأوان للزراعة... زرعنا أشجار الرُّمَّان. كانتْ من أجودِ الأنواع ومُكْلِفَةً جداً. زرعنا

منها حوالي سبعمائة. وزرعتُ بنفسي مائة منها. وزرع عمي بضعة أشجار.
لدينا بستان لأشجار الرُمَّان، على مساحة عشرين فداناً، بعيد في سَعِير الصحراء. قد صار بستاناً في أغرب أرض يَبَابٍ رآها إنسانٌ من قبل. وكان أجملُ منظرٍ يَصْعُبُ تخيُّله، كان عمي مشدوهاً به. وبدلاً من المُضِيِّ فيما اعتزم، جرَّبَ إنشاء مزرعةٍ مساحتها ستمائة وثمانين فداناً، قرَّر أن يُكرِّس كلَّ وقته وطاقته وماله في أشجار الرُمَّان.

قال :- فلنتريث فترة حتىٰ نبدأ في تسويق الرمان، واسترداد أموالنا.

قلت :- أجل ياسيدي.

لستُ متأكداً، لكني توقعتُ أننا لن نحصل علىٰ رُمَّانٍ نتحدَث عن قطفه من هاتيك الأشحار القليلة لمدة سنتين أو ثلاث سنوات علىٰ الأقل، لكني لم أتفوَّه بشيء. وتخلَّص عمي من العمال المكسيكيين، واضطلعنا- هو وأنا- بشؤون المزرعة . عندنا الجَرَّار وأرضٌ شاسعة، لذا، فقد خرجنا- بدءاً من ذلك الوقت- إلى المزرعة وقُدنا الجَرَّار، وأخذنا نقلع نبات الصبار، ونقلب التربة من حول أشجار الرُمَّان. واستمرَّ هذا الحال ثلاث سنوات.

وفي يوم من تلك الأيام، قال عمي:

- سوف تشهد، في هذه الصحراء، أجملَ حديقةٍ علىٰ وجهِ الأرض.

كما لم تتحسَّن حالةُ المياهِ بمرور الزمن. ثمَّة انبثاقٌ فجائيٌ لمياهٍ غزيرة، من حينٍ لآخر، تحوي حصى قليلاً، يفرح عمي لهذا كثيراً، إلا أنه في اليوم التالي تصبح المياه عَكِرَةً مرة أخرىٰ، وثمَّة قطراتٌ شحيحةٌ فحسب، صمدتْ اشجار الرُمَّان بشجاعةٍ كي تبقىٰ حية، لكنها لم تحصل أبداً على كفايتها من المياه لِتُخْرِجَ ثمارَها... وبعد السنة الرابعة، ظهرتْ زهور الثمار. وكان هذا نجاحاً باهراً لعمِّي. انتابه فرح جنوني عندما رآها. إلا أنه مامِنْ شيءٍ

آخرٍ ظَهَرَ أكثرَ من زهورِ الثمارِ هذه. كانت جميلة جداً، لكن هذا كلُّ ما في الأمر... أرجوانية بديعة الشكل.

وفي تلك السنة حصد عمي ثلاث رُمَّانات صغيرات. أكلتُ واحدة، وأكل واحدة. واحتفظنا بالثالثة في مكتبه.

وفي العام التالي، وقد أصبحتُ في الخامسة عشرة. حدثتْ لي أشياء كثيرة مدهشة. فقد قرأتُ لعددٍ من الكتاب البارزين، وكبرتُ حتىٰ أصبح طولي يُنَاهِزُ طولَ عمي. وظلَّت المزرعةُ سِرَّنا. وقد كَلَّفتْ عمي أموالاً طائلة، لكنه في تَعَجُلِهِ، شرع في تسويق رُمَّانه، واسترداد أمواله، والاستمرار في خطته لإنشاء حديقةٍ في قلب الصحراء.

لم تكن الأشجار عالية بالدرجة المَرْجُوَّة. كَبُرَتْ قليلاً، لكن نموَّها يُمكن ملاحظته بصعوبةٍ بالغة وبعض الأشجار ذَبُلَتْ وماتت.

قال عمي : - في المتوسط، عشرون شجرة فقط في كلِّ فدان. ذلك هو المتوسط. ينبغي ألا نزرع أشجاراً جديدة الآن. سوف نُرْجِيءُ ذلك إلىٰ وقتٍ لاحق.

ولم يزل، أيضاً يَصْرِفُ علىٰ الأرض.

وفي العام التالي، حصدَ نحو مائتي رُمَّانة. قمنا - هو وأنا- بِقِطَافِهَا. وكان رُمَّاناً لا يُرْجَىٰ منه خير. جمعناها في صناديق جميلة الشكل، وشحنها عمي للمركز الرئيسي للبيع بالجملة في شيكاغو. شحن إلى هناك أحد عشر صندوقاً. ولم يُخْبِرْنا المركزُ الرئيسي بشيءٍ لمدة شهر. وذات ليلة، اتصل عمي هاتفياً من مكانٍ بعيد. فأخبره (داجوستينو) مسؤول الحاصلات الزراعية ، بأنه لايجد مشترياً للرُّمَّان. صاح عمي عبر الهاتف:

- كم حَدَّدْتَ سعراً للصندوق؟.

صاح (داجوستينو) بدوره: - دولاراً واحداً.

- لايكفي لن آخُذَ في الصندوقِ الواحدِ أقلَّ من خمسة دولارات ولو بنكلة واحدة.

- إنهم لايشترون الصندوق بدولار واحد.

- لماذا؟.

- إنهم لايعرفون نوعه.

صاح عمي: - أيُّ نوعٍ من رجالِ الأموال أنت؟ إنه رُمّان. وأريد خمسة دولارات للصندوق.

صاح مسؤول الحاصلات الزراعية:

- لا أستطيع بيعها . أكلتُ واحدة، ولا أرى فيها ما يُغْري.

- أنت سَيِّءُ التقدير. ما مِنْ فاكهةٍ تُشبه الرُمَّان. وخمسة دولاران للصندوق لاتَفِيْ بنصفِ القيمة.

- ماذا أفعل بها ؟ لا أستطيع بيعها، ولا أريدها.

همس عمي: - إذن، أَعِدْ شَحْنَها. أعِدْ شحنها كما هي.

كلَّفَتْ المكالمةُ الهاتفية عمي حوالي سبعة عشر دولاراً.

وبهذا أُعيدتْ الصناديق كلُّها. وأكلنا - عمي وأنا - معظم الرُمَّان.

وفي السنة التالية، لم يستطع عمي أن يُنفق المزيدعلى الأرض. وردَّ المستندات للرجل الذي باعه الأرض. وكنتُ في المكتب في ذلك الوقت.

قال عمي: - أُعيد إليك، ياسيد جريفيث، ماتملك، ولكن أودُّ أن أطلب خدمة بسيطة. فقد زرعتُ عشرين فداناً بأشجار الرُمَّان، هناك في تلك الأرض، سوف أرفع من قيمتها إذا تركتني أعتني بتلك الأشجار.

قال السيد (جريفيث): - تعتني بها ؟،لأيِّ غرض؟.

حاول عمي أن يشرح، لكنه لم يستطع. إنه من الصعب جداً أن تُفسِّرَ لرجلٍ لايتجاوب معك.

وبهذا، فَقَدَ عمي الأرض، والأشجار أيضاً.

وفي الثلاث سنوات الأخيرة، قصدنا الأرض، واتجهنا إلى بستان الرُمَّان. كانت الأشجار كلُّها ميتة. واكتظتْ التربةُ مرةً أخرىٰ بنبات الصبَّار وأعشابٍ صحراوية. وفيما خلا أشجار الرُمَّان الصغيرة الميتة، ظلَّ المكان علىٰ حالته التي كان عليها منذ سنين.

ظللنا نتجول في البستان فترة ، ثم عدنا إلى السيارة. ركبنا السيارة وعدنا إلى المدينة .

لم ينبس بِبِنْتِ شَفَه، فما أقسىٰ النُطق، وما مِنْ كلامٍ يُمْكِنُ أن يُقال.

جوان كابرال، مكسيكي فارع الطول. اشتغل مع عمي في تشذيب كروم العنب. كان فقيراً، يحمل على كاهله عِبءَ عددٍ من الرعايا: زوجته كونسويلا، وابنيه بابلي وبانشو، وبناته الثلاث، وابن عمه الأعرج فيدريكو، وأربعة كلابٍ وقطة، وقيثارة، وبندقيةَ رش، وحصاناً عجوزاً ، وعربة نقل قديمة، ومجموعة كبيرة من أواني المطبخ.

كنتُ أتحدث مع عمي صباحاً في حَوْش المزرعة، حين قطع جوان الطريق بعربته النقل، وطلب عملاً. قال عمي : - ماهذا؟.

قلت : - مكسيكيون.

- كيف يتحدثون؟.

- بالعمل. وقد تتحطم قلوبهم حتىٰ يحتّملوه. لكن هذا ما يريدون.

- لست في حاجة إلى مساعدة.

- إنهم لايكترثون. وسوف يتجهون إلى حيث توجد مزرعة الكروم التالية.

دخلتْ عربةُ النقل حَوْشَ المزرعة ببطء. وقال جوان كابرال، بالمكسيكية :

- صباح الخير(بوينوس دياس، أمياجوز).

وقال بانجليزية ركيكة:

- هل هناك عمل لمكسيكي قوي، في كرمة العنب هذه؟.

قال عمي لي : - من؟.

قال جوان كابرال: - أنا، جوان كابرال.

قال عمي: - جوان كابرال. لا، لا يوجد عمل.

قال عمي لي : - ماذا يقول؟.

وأشعل لفافة دخان، لتساعده على التغلّب على حيْرَته.

قلت: - يريد أن يعرف كم تدفع.

قال عمي:

- من تطرّق في الحديث إلى الدفع؟ أنا لا أستأجر أيّ رجل.

قلت: - على أيّ حال، إنه يريد أن يعرف. وهو على علم بأنك لا تستأجر أيّ رجل.

ودُهِشَ عمي . قال : - حسنا. أنا أدفع لليابانيين ثلاثين سنتاً في الساعة. وأغلبُ المزارعين يدفعون عشرين أو خمسة وعشرين.

قلت لجوان : - الأجر ثلاثون سنتاً في الساعة.

قال المكسيكي: - هذا لايكفي. فثمّة أفواهٌ كثيرة تحتاج إلى الطعام هذا الشتاء.

قال عمي: - ماذا يقول؟.

وكان عمي متبرما، إلى حدٍ ما، ولم يفهم شيئاً من كلام جوان إلى أن أعَدْتُ عليه ما قال.

قلت: - إنه يقول أن ثلاثين سنتا في الساعة لاتكفي لإطعام كلّ

الأفواه التي يلتزم باطعامها هذا الشتاء.

قال عمي: - من يُطعم؟

قلت: - كلَّ الراكبين في عربة النقل.

قال عمي: - أين يعيشون؟.

قلت: - لا أعرف. وإن كنتُ أفترض أنهم سوف يجدون مأوى في أحد الأمكنة.

لم يتكلم جوان كابرال. واتجه أحدُ كلابه إلى عمي ولعَقَ يده. فقفز عمي متلفتاً حوله في فزع. قال: - ماهذا؟.

قلت: - أحد كلاب المكسيكيين.

قال عمي: - حسناً، أبعده عني.

وطلبتُ من الكلب أن يعود إلى عربة النقل، فامتثل. وتَتَبَّعَهُ عمي وهو راجع. لم يتتبَّع الكلب فحسب، أثناء رجوعه، وإنما أخذ يتفرَّس فيه وهو راجع من حيث أتى.

قال : - هذا كلب عادي، ترَىٰ أمثاله بالمئات في الشوارع.

قلت: - حقاً.

قال عمي: - هذا الكلب لايساوي شيئاً .

قلت: - إنه لايساوي أقلّ مبلغ، لايُدفَعُ في هذا الكلب دولاران.

- إنني أدفع في هذا الكلب ثلاثة دولارات. مافائدته؟ هل يُمكنه الامساك بأرنب أمريكي أو ما يُشبهه؟.

- لا.

- هل في مقدوره أن يُخيف اللصوص؟.

- لا... يُمكنه فقط أن يخرج ويَلعق أيدي اللصوص.

قال عمي: - حسناً ، فما فائدته؟.

- لافائدة تُرْجَىٰ منه.

- فلماذا، إذن يُحافظون علىٰ الكثير من أمثاله؟

- إنهم مكسيكيون. قوم مكسيكيون بسطاء.

قال عمي:

- أسمعُ عن المكسيكيين، أنهم يقومون بعمليات سرقة كبيرة.

قلت : - إنهم يأخذون ما ليست جذورهُ ممتدةً في الأرض.

قال جوان : - عندي ثلاثة عشر فماً يتناولون الطعام، ولم أحسِبْ نفسي ضمنَ هذا العدد. إن ثلاثين سنتاً في الساعة لاتكفي.

قال عمي:- ثلاثة عشر فماً؟

قلت : - إنه يَعــُدُّ الحيوانات.

قال عمي: - لا أظن أنه يعرف كيف يُشذِّب كرمة عنب.

قلت لجوان : - هل تعرف كيف تُشذِّب كرمة عنب؟.

قال : - لا، ياسيدي. أنا جندي.

قال عمي: - ماذا يقول؟

قلت : - يقول أنه جندي.

قال عمي :- الحرب انتهت.

أظهرَ المكسيكيُّ بندقية الرَشْ ، ورفعها إلى كتفه ليُثبِتَ أنه كان جندياً، وقفز عمي ورائي عندما لاحظ ما أصابه من هَيَاج. قال:

- إطلب منه أن يُبْعِدَ هذه البندقية. لا اريد أن أكون هدفاً لمكسيكي قضاءً وقدراً. أنا أُ صدِّقه. أُصدّق أنه جندي. أطلب منه أن يُلْقي هذه البندقية اللعينة بعيداً. أنه سَيُصَوِّب عليَّ بدقةٍ ليُثْبتَ أنه جندي .

قلت : - لا، لن يفعل.

قال عمي لجوان كابرال : - لا أحتاج أيّ مساعدة.

قال المكسيكي: - إن ثلاثين سنتاً في الساعة لاتكفي لاطعام ثلاثة عشر فماً. ولم أَحْسِب نفسي.

ألقى البندقية بعيداً، فلاحظ عمي، أول ما لاحظ، أن خمسة وجوه مكسيكية تتفرس فيه. ففقد توازنه تماماً. قال: - من هؤلاء؟.

- هؤلاء أطفال . ولدان وثلاث بنات.

قال عمي: - ماذا يريدون؟

قلت: - فولاً ودقيقاً وملحاً. ولا يريدون أكثر من هذا.

- اطلب منهم أن ينصرفوا، إنه لايعرف كيف يُشذِّب كَرْمَة عنب.

- يمكن لأيّ شخصٍ أن يتعلّم تشذيب كَرْمة عنب.

- إنه سيقضي على مزرعة العنب.

قلت :- ويسرق كلَّ شيءٍ له جذور في الأرض.

قال عمي: - أنا أدفع عشرة سنتات في الساعة أكثَرَ مِمَّا يدفعه غالبية المزارعين.

قلت: - إنه يقول أن الأجر لايكفي.

- حسناً. إسأله عن الأجر الذي يكفي.

قلت للمكسيكي: - ياسيد كابرال، هل يُمكنك أن تعمل بخمس وثلاثين سنتاً في الساعة؟ عمّي لايحتاج لأيّ مساعدة، لكنه يُشفق عليك.

قال المكسيكي:- هل عندكم سَكَنٌ لأسرتي وللحيوانات.؟.

قلت: - نعم، سَكَنٌ بسيط لكنه مريح.

قال المكسيكي:- هل هناك عمل إضافي أؤديه؟.

قلت: - قليل جداً.

قال المكسيكي: - هل هو عمل لطيف؟

قلت: - لطيف وصحي.

نزل جوان كابرال من العربة واتجه إلى عمي. وكان عمي خائفاً إلى حدٍ ما. ومشت الكلاب خلف المكسيكي، وأحاط أطفاله بعمي. فقال له المكسيكي:- أيها السيد، أوافق على العمل في مزرعتك.

قال عمي: - وهذا يُشَرِّفني.

وكان مُشتَّتَ الفكر، بسبب الكلاب في الغالب، وأيضاً بسبب الأطفال الخمسة المكسيكيين، والوسائل العجيبة للمكسيكي. بالتأكيد، لم تكن البندقية هي السبب، فعمّي لايسمح لأيّ قوةٍ خارجية أن تُصيبَهُ بالرعب.

وفي الثالثة بعد الظهر، انتشر المكسيكيون في منزلهم الصغير، وصَحِبتُ جوان كابرال، فتبعه بابلو وبانشو وابن عمه الأعرج فيدريكو، إلى كَرْمَةٍ لأُعلّمه كيف يُشَذِّبُهَا. شرحتُ له الغرض من كلّ جَزَّةٍ بالمقص، وانتقلتُ من الصف السفلي للكروم إلى الكَرْمَة التالية، ناولته مقصّات التشذيب وسألته إن كان يتضرّر من محاولة تشذيب الكَرْمَة. كان مؤدباً للغاية وقال أنه يُسْعَدُ بهذا العمل. واشتغل بحماس، وعلى مهل، شارحاً لأطفاله وابن عمه الأعرج، نفس الشرح الذي قلته له، والغرض من كلّ جَزَّةِ مقص. وكان ابن عمه الأعرج فيدريكو -الذي يبلغ الستين أو نحو ذلك- ملتزماً للغاية. وتوقعتُ منه أن يستمر في تشذيب الكروم حتى يحلَّ الظلام، عُدتُ إلى عمي الجالس عند عجلة قيادة (الفورد)، وهو يحلم.!

قال : - كيف الحال؟

قلت :- ممتاز.

سرنا ونحن عائدون إلى المدينة، بسرعة ستة وستين ميلاً في الساعة،
كما لو أن عمي أراد أن يبتعد عن شيءٍ يُفْزِعُه، ولم يتكلم طوال الطريق.
وعندما وصلنا إلى شارع فينيترا بالقرب من الأراضي الممهدة، قال:
- إن الكلاب الأربعة التي لاتُساوي كلُّها شيئاً، وُضِعَت معاً.
قلت:
- ليست الكلاب فحسب، فالمكسيكيون لهم نفسُ الطريقة بالضبط.
قال عمي: - أعتقد أن ذلك الكلبَ كان يَنْوي أن يَعُضَّني .
- لا. لم يكن في نِيَّته، حتى لو صدمته. إن قلبه مُفْعَمٌ بالحب. نفسُ
الشيء تجده عند المكسيكيين. وهم لايسرقون أيَّ شيء، إطلاقاً.
- يبدو أولادهم سليمي البُنْيَة، ظرفاء.
- لا تبدو عليهم دلائل الصحة.
قال عمي: - ماذا يأكلون؟.
قلت: - الفول والخبز المكسيكي. وهي تركيبة لايُفترض فيها أنها
تُفيدك في شيء.
- هل تظن أنه في وقتٍ ما سوف يُتقن تشذيبَ كَرْمَةِ عنب؟.
- بكل تأكيد.
- لا أظن أنه سَيَنْطَلِق بالمحراث بعيداً. أليس كذلك؟.
- لا ... فهو ثقيل للغاية.
قال عمي:- في العام الماضي، خَسِرتُ مالي في مزرعة العنب هذه.
قلت :- أعرف. وخَسِرتَ المال فيها أيضاً في العام قبل الماضي.
- لقد خَسِرتُ مالي على مزرعة العنب هذه بصفةٍ مستمرةٍ منذ
اشتريتها. من يريد العنب؟ من يريد الزبيب؟.

- قد تختلف الأمور هذه السنة.

- هل تعتقد ذلك؟.

- أعتقد أن هذا المكسيكي قادر على إيجاد حل.

قال عمي : - شيء لطيف. أفكر في نفس الشيء. وإذا كان يقوم بإطعام ثلاثة عشر فماً هذا الشتاء، ولا يَحْسِبُ نَفسَه، فلن يكون الوضع سيئاً جداً هذا العام.

قلت: - ولن تفقدَ أكثرَ مِمَّا فقدتَ في العام الماضي.

- إن اليابانيين أفضل. إنهم لاينظرون للأمور بالطريقة التي ينظر بها المكسيكيون.

- ولا يفكر اليابانيون في الاحتفاظ بأربعة كلابٍ مدربة.

- إنهم يُنَحُّون الكلاب بعيداً.

- إنهم يرمون الكلاب بالحجارة.

قال عمي: - أعتقد أني أستقبل سنة طيبة هذا العام.

ولم نَقُلْ شيئاً أكثرَ من قَطْعِ الطريق إلى البلدة.

بائع وثائق التأمين
والفلاح، وتاجر البطاطين
والشتلة الموضوعة بأصيص

أرشاك جُرْبَاقيان، رجل بسيط، رتَّبَ حياته كبائعِ وثائقٍ بشركة التأمين على الحياة بنيويورك. واقتصر عمله بين بني جِلْدَتِهِ الأرمن. وطيلة عشرين سنة، يُبَلِّغ مِرَارًا كلَّ عميل جديد:

- بعتُ ثلاثمائة وثيقة، بالاضافة إلى مائتين لعملائي الذين ماتوا.

ولم يُظهر أسفاً وهو يُرَوِّج لهذه الملاحظة، ولا يَعْمَدُ إلى تقديم تفسيرٍ لفاجعةِ الحياة. وعلىٰ عكس ذلك، فإن ابتسامة جُرْبَاقيان قد أوضحت أن ما يقصده بالمائتين الذين ماتوا، أن هؤلاء الرجال قد وافاهم الأجل بَغْتةً بسهمه الطائش، وفي نفس الوقت، وضعت شركة التأمين علىٰ الحياة حداً لهذا العبث. وإلى جميع الرجال ثاقبي الرأي، توجَّه إلىٰ كلِّ عميلٍ منهم ليُبْلِغَهُ: - رجال مثلكم، عمليون وناجحون في كلِّ مجال.

وقد حدَّثوا أنفسهم :

- أجل سوف نموت، لامفرَّ من الموت، فلنواجه الحقائق.

من هنا يبدأ بائع وثائق التأمين في إخراج الرسوم البيانية والاحصائيات المطبوعة من جيب معطفه الداخلي ويقول لهم : - إن الحقائق موجودة هنا. وأعماركم نحو السابعة والأربعين، وأنتم بفضل الله صحتكم جيدة. وطبقاً للحقائق فسوف تموتون في غضون خمس سنوات.

ويبتسم متلطفاً، وهو يُشارك العميل الجديد الاحساسَ برجفة الموت خلال خمس سنوات، جامعاً بذلك مبلغاً محترماً من المال. ويقول :- في خمس سنوات، ستدفعون لشركتي ثلاثمائة وسبعة وثمانين دولاراً، وتحصلون عند الوفاة على عشرين ألف دولار، أو الربح الصافي ويُقدّر بتسعة عشر ألفاً وستمائة عشر دولاراً.

ويقول: - وهذا ربحٌ صافٍ لأيّ استثمار.

على أيّ حال، فقد تحدّثَ ذات مرةٍ مع فلاح في (كينجز برج)، لايرى أنه حتماً سيموت في غضون عشر سنوات.

قال الفلاح:- إرجع إليَّ بعد سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً.

قال بائع وثائق التأمين: - لكن عمرك الآن سبعة وستون عاماً.

- أعرف. ولكن لن تنطلي عليَّ خُدْعَة كهذه. سوف أعيش عشرين عاماً من الآن. قد زرعتُ ثلاثمائة شجرة زيتون جديدة، وأعرف أني لن أموت قبل أن تُثمر. ناهيك عن أشجار التوت، وأشجار الرُمّان، وأشجار الجوز واللوز.

وقال الفلاح : - لا، لن يُنضِجَ الزمن صفقةً من هذا النوع. أعرف أني سوف أعيش عشرين عاماً من الآن. أستطيع إدراك ذلك في عظامي. هل توافقني؟.

قال بائع وثائق التأمين : - نعم.

- بل، سأعيش ثلاثين عاماً أكثر، لا عشرين. أنت تُساعد على خِدَاعي بصفقةٍ كهذه.

وكان بائعُ وثائق التأمين بسيطاً، ومُجاملاً، ولَبِقَ الحديث، ولا ينفعل بالمرَّة :- إني أراك رجلاً ذا عزيمةٍ قوية...

زعق الفلاح :- عزيمة قوية؟ هل توافقني؟

طأطأ بائع الوثائق رأسه: - ما تقوله هو الصدق. أنا رجل ذو عزيمة قوية. ما الموت؟ لماذا أموت؟ لأيِّ سبب، أيها الريفي؟ أنا لستُ متسرعاً. المال؟ أجل. إنه ضروري. لكنني لستُ على شفا حفرةٍ من الموت.

دخن بائع الوثائق سيجارة بهدوء، رغم ما بداخله من توترٍ بالغ، مثل فارسٍ مهزومٍ منكسر، يُحاول باستماتة أن يُمسك بخصمه، ويتهيَّأ لهجوم آخر.

قال للفلاح :- الموت يأتيك؟ لاقدَّر الله، إنني لم أتمنَّ الموت قطُّ لأيِّ رجل. إننا نستمتع بمباهج الحياة، وتحبُّ تذوق البطيخ في فصل الصيف.

- هل تأذن لي؟.

طأطأ بائعُ الوثائق رأسَهُ مرةً ثانية، فقال الفلاح:

- ما تقوله هو الصواب. فالشيء العزيز علينا هو مذاق البطيخ في فصل الصيف. والخبز والجبن والعنب في برد المساء، تحت الأشجار. استمر، من فضلك.

قال بائع وثائق التأمين : - لستُ أُحَبِّذُ فراق إنسانٍ بعيداً عن دفء الحياة. لكنِنا، في كلِّ الأحوال، علينا أن نواجه الحقائق.

وأشار إلى الأوراق التي في يده:

- إن عالمنا لمجنون، وأنت رجل قوي... تستمتع بمذاق البطيخ،

وتمشي في أرجاء البلدة. وقد تصدمك سيارة، فأين أنت إذن؟ أنت متّ.

تجهّمَ الفلاح، قال: - آه، نعم. العربة.

قال بائع وثائق التأمين:

- لاقدّر الله، في الحادثة التي تُقتل فيها قضاءً وقدراً.

- سأكون منتبهاً جداً للسيارات اللعينة، وأنا سائر في الشوارع.

- نحن جميعاً منتبهون، لكن ماذا نفعل بحُسْن النوايا؟ ففي كلّ سنة، يُقتل أناسٌ كثيرون في حوادث السيارات، أكثرَ من عدد اللذين يُقتلون في سنةٍ واحدةٍ في حربٍ عظمىٰ.

قال الفلاح : - هل تأذن لي؟

- تفضّل ..

- لديَّ رغبة في أن أعيش في أمان، ولديَّ رغبة في الحصول علىٰ وثيقة تأمين.

- إنه تفكير سديد.

اشترىٰ الفلاح وثيقة تأمين وبدأ يُسدّد أقساطها. وفي السنتين الأخيرتين، استدعىٰ بائعَ الوثائق إلى منزله، وأنّبَهُ بشدة، ولكن بأسلوب مهذّب. واشتكىٰ له من أنه أنفق مئات الدولارات، وهو لايتردّد على أيّ مكان تشوبه شائبة، ليتعرّض فيه للقتل.

قال :- لستُ في حاجةٍ إلى وثائق التأمين بعد ذلك.

روىٰ له بائع الوثائق القصةَ الساخرة عن رجلٍ آخر أرجع وثيقته بعد عامين، وفي آخر ثلاثة أسابيع واجه الموت من ثورٍ هائج. لكن الفلاح لم يتأثر بالقصة، قال :- هل تأذن لي ؟ لايملك أيُّ ثورٍ في العالم تلك القوة التي يستطيع أن ينطحني بها. سوف أكسر رقبته. لا، أشكرك، لاأريد أن أُؤمَّن.

لدى قناعة بأنني لن أموت قريباً، حتى لو كان وراء هذا الموت مكسب مادي.

أتيحتْ لي الفرصة مائة مرة للسير أمام السيارات، ودائماً أتراجع للخلف وأنا حذِر، وأسمح لها بالمرور. كان ذلك منذ أربعة عشر عاماً، وما زال الفلاح، ويُدعىٰ حكيميان، على قيد الحياة... على أيٍّ حال، اتجه بائع وثائق التأمين إلى المثقفين، نافضاً يديه عن الفلاحين. وهو نفسه خَرِّيج كلية. وانصَبَّ اختيارهُ أساساً على رجال يستطيع التحدث معهم لعدة ساعات في مواضيع مختلفة ثم يتدرج في الحديث إلى التأمين . وغالباً ما يُفضل الانتقال لمسافة مائتي ميل، إلى سان فرانسيسكو، ليتحدث مع طبيب أسنان، خريج كلية.

ذات مرة، قرَّر أن يتجه بسيارته (البويك) مجتازاً البلدة إلى (بوستن). استغرقت الرحلة عشرة أيام. وعلىٰ طول الطريق كان هناك الكثير الجديد بالمشاهدة. وفي (بوستن)، عَزَمَ علىٰ زيارة اخته وزوجها وأولادها الأحد عشر. وقد اتجه بسيارته إلى (بوستن)، وزار أخته وأسرتها، والتقىٰ بتاجر بَطاطِين، خرِّيج كلية. وزار بيتَ هذا الرجل ثلاث مرات خلال عشرة أيام، وأجرىٰ محادثاتٍ ناجحة. الرجل اسمه هاروتونيان، وكان يميل للحوار كثيراً. وقد وجده بائع الوثائق متفوقاً في كلِّ المواضيع التي تحدَّث إليه فيها. ولكن، عندما تطرَّق إلى الحديث عن التأمين على الحياة، إكتشفَ إعْرَاضَ صديقه، حيث لم تكن لديه رغبة. ولاسيما في الوقت الحالي، على الأقل. وحان الوقت لعودة بائع الوثائق إلى (كاليفورنيا). وقُبيلَ الرحيل، قام بزيارة لتاجر البطاطين، هاروتونيان، وكان يحمل معه شتلة موضوعة في أصيص... قال تاجر البطاطين: - أيها الصديق، لي أخ يقطن في (بيكر سفليد) وهي قريبة من المنطقة التي تعيش فيها. لم أره منذ

عشرين عاماً. هلا أدّيتَ لي خدمة؟.

قال بائع وثائق التأمين: - طبعاً..

- أَرْسِلْ هذه الشتلة لأخي، مع تحياتي.

- بكلِّ سرور. ما هذه الزرعة؟.

قال تاجر البطاطين :

- لا أعرف، لكن لورقة النبات رائحة مدهشة. شُمَّها.

وشمَّ بائع الوثائق الزرعة، وكان مُستاءً وهو يشمُّ ورقة النبات. قال:

- انها رائحة رائعة حقاً.

وأعطى تاجرُ البطاطين لبائع الوثائق اسمَ وعنوانَ أخيه، ثم قال:

- زِدْ على ذلك، أن الادارة الزراعية في كلِّ ولاية ترىٰ ضرورة فحص النبات المنقول، بسبب حشرات النبات. وليس ثمَّة شيءٌ يتعلق بهذا النبات، لكن القانون هو القانون. لذا ينبغي التوقف فترة عند الادارة الزراعية لكلِّ ولاية. بما يقتضيه النظام.

قال بائع الوثائق : - أوه ...

علىٰ أيِّ حال، فقد نطق كلمته وهو يضع الشتلة داخل عربته. وبدأ رحلته من (بوستن)... كان رجلاً يحترم القانون، وسبَّبَتْ له الشتلةُ متاعبَ صغيرة، نوعاً ما. حتىٰ بعدأن يتكرَّر عثوره علىٰ مكان الادارة الزراعية لكل ولاية، فان الفاحص المختص يكون خارج البلدة، ولا يُتَوَقَّعُ عودته لعدة أيام. وترتب على ذلك أن بائع الوثائق وصل إلى البيت بعد واحدٍ وعشرين يوماً بدلاً من عشرة . وقطع بعربته مائة ميل إلى (بكرفيلد)، حتى عثر على شقيق تاجر البطاطين. .. كانت الشتلة على حالتها، وأنبتت الآن زهوراً حمراء صغيرة، انبعثت منها رائحة سَبَّبَتْ لبائعِ الوثائق ضيقاً متزايداً.

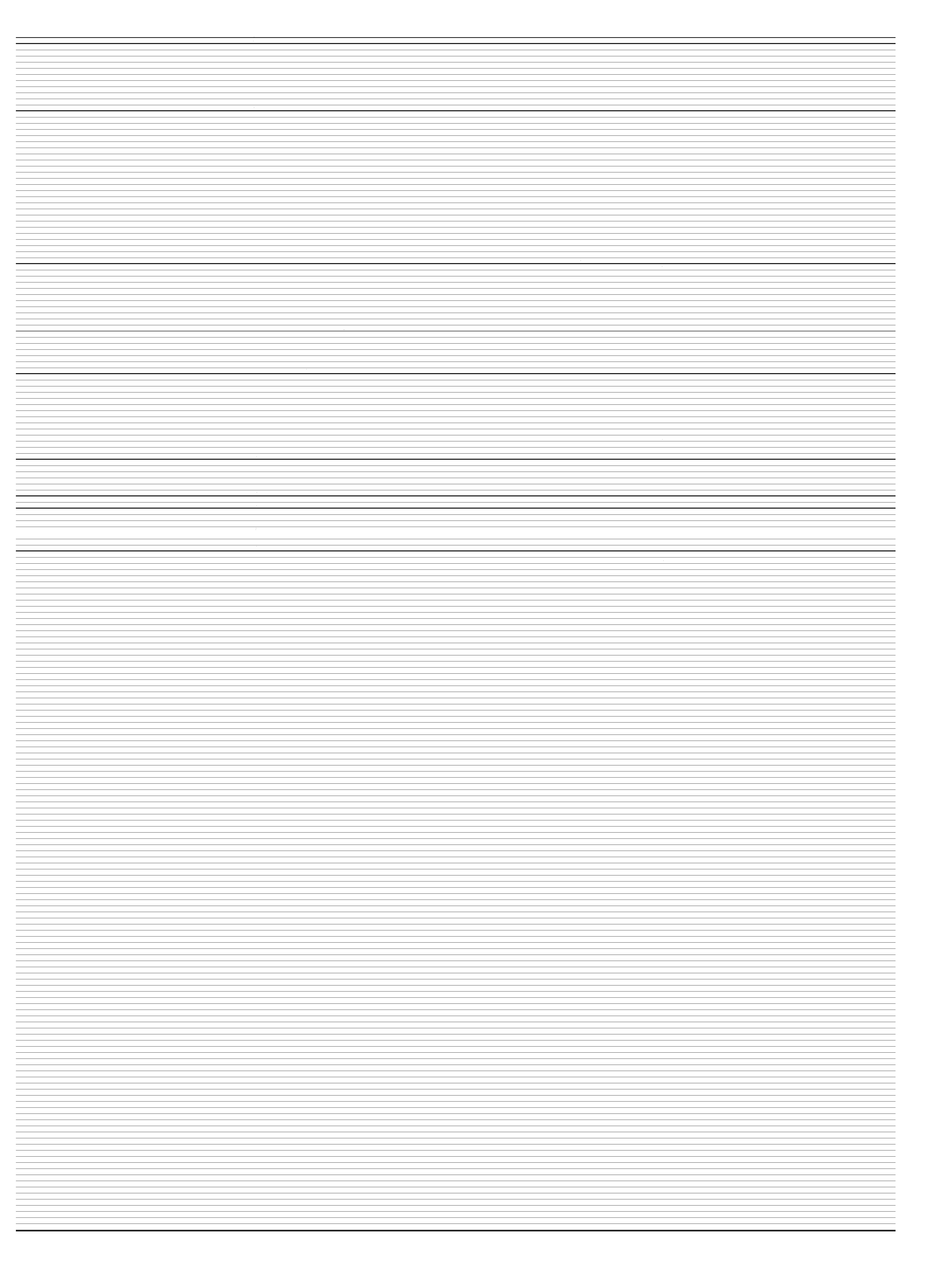
قال بائع الوثائق :

- قد حملتُ هذه الشتلة العجيبة مسافة ثلاثة آلاف وستمائة وثمانية وسبعين ميلاً، من بيت أخيك في (بوستن) إلى بيتك في (بكرفيلد). وأخوك يبعث إليك بتحياته.

لم يُحب شقيق تاجر البطاطين الشتلة بالقدر الذي تكبَّده بائع الوثائق في نقلها. قال : - لا أريد الشتلة.

ونادراً ما كان بائع الوثائق يُدهَشُ من شيء ما . وأقرَّ بعدم اكتراث الأخ، واصطحب الشتلة معه إلى البيت... زرعها في أخصب تربةٍ بالفناء الخلفي، وأحضر لها سماداً، وسقاها، وأولاها عناية فائقة جداً. قال لجاره:

- ما أفعله ليس لاهتمامي بالشتلة، فهي تُثير اشمئزازي. لكنني في يومٍ ما، قد أعود إلى بوستن لأزور أختي، وعندما أقابل تاجر البطاطين مرة أخرى، فإنني متيقن أنه سيسألني عن الشتلة، وسأقول له حينئذ، وأنا مسرور، أن الشتلة أزهرت. وأرى أنها ستكون فرصة طيبة مُتاحَةً لأبيع لهذا الرجل وثيقة تأمين، ذات يوم.



ذات يومٍ، قَدِمَ رجل إلى المدينة على ظهر حمار، وأخذ يتلكأ عند المكتبة العامة، حيث اعتدتُ أن أقضي معظم وقتي في تلك الأيام. كان شاباً هندياً فارع الطول، من قبيلة (الأوجيبواي). أعلمني أن اسمه (القاطرة 38). واعتقدَ كلٌّ من في المدينة أنه هاربٌ من مصحَّةٍ عقلية.

بعد ستة أيام من وصوله إلى المدينة، اصطدم بعربة يدٍ صغيرة في شارع (توليير)، فأصيبُ إصابة كبيرة. وفي اليوم التالي، مات الحيوان. ومن المرجح تواجد إصابات في أجزاء جانبية من شارعي (ماريبوز) و (فولتْن). اصطدم الحيوان بالرصيف، وقع على ساق الهندي، فتألم كثيراً ومات. وعندما حرَّر الهندي ساقه، نهض وقصد محلَّ أدوية عند المنعطف، وقطع مسافة كبيرة لأجراء مكالمة هاتفية. اتصل هاتفياً بأخيه الذي يُقيم في (أوكلاهوما). كلَّفته المكالمة نقوداً كثيرة، أخذ يُسْقِطُهَا في الشِقِّ حسبما طلب منه المُشَغِّل، وكان من عادته أن يُجْرِي مثلَ هذه المكالمات كلَّ يوم.

كنتُ وقتئذٍ في محل الأدوية، آكلُ موزاً من نوعٍ ممتاز، بالجوز المكسَّر.

عندما خرج من غرفة الهاتف، لمحني جالساً في محل بيع الصودا،

وانا آكل هذا الطعام المفضّل. قال: - أهلاً ، ياويلي.

وعرف أن اسمي ليس ويلي، لكنه أحبّ أن يناديني به.

وقصد واجهة المحل، حيث يُعرض اللُّبان، واشترى ثلاثة أكياس من

(جويسي فروت). ثم عاد إليّ قائلاً:- ماذا تأكل، ياويلي؟ يبدو طعاماً لذيذاً.

قلت :- يُطلقون عليه (موز ملكي خاص).

نهض الهندي من على المقعد المجاور لي. قال للفتاة التي تبيع

الصودا :- أعطني نفس الطعام.

قلت : - إنه أمر مؤسف لحيوانك.

قال :

- لامكان في هذا العالم لحيوان، مانوع السيارة التي يُمكنني شراؤها؟

- هل تنوي شراء سيارة؟

- لم أفكر في ذلك من قبل. قلت:

- لستُ أعتقد أن معك مالاً. أعتقد أنك فقير.

قال : - هذا انطباعُ الناس عني. الانطباعُ الآخر أنني أحمق.

- لم يتبادر إلى ذهني أنك أحمق، ولكن لم أفكر قطُّ في أنك غني.

- حسناً، أنا غني.

قلت : - إني أتمنىٰ أن أكون غنياً.

- لِمَ ؟

- كنتُ أرغب في الذهاب للصيد في(ميندوتا). وأحتاج بعض الأدوات

وسيارة أذهب بها إلى هناك.

قال الهندي :- هل في مقدورك أن تقود سيارة؟.

- أستطيع أن أقود أيَّ شيء.

- هل قُدْتَ سيارةً من قبل؟.

- لم يسبق لي ذلك. حيث أنَّي لاأمتلك سيارة لأقودها، وليس من عادة أسرتي الاستحواذ على سيارة.

- هل تقصد أن تقول لي أن في إمكانك أن تركب سيارة وتقودها؟

- أجل.

قال:

- تذكَّر ما كُنْتُ أقوله لك عند مدخل المكتبة العامة مساءً أمس؟

قلت : - تقصد ما كُنْتَ تقوله عن عصر الآلة؟

- أجل.

- إني أتذكر..

- حسناً. لقد وُلِدَ الهنود بالفِطْرَة للركوب، والتجديف، والصيد، وصيد السمك، والسباحة. ووُلِدَ الأمريكيون بالفطرة لإضاعة الوقت بالآلات.

قلت : - لستُ أمريكياً.

قال الهندي : - أعرف. أنت أرمني، على ما أذكر. لقد استفسرتُ منك فأخبرتني.. فأنت أرمني، وُلِدْتَ في أمريكا. وتبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وتُدْرِكُ تماما أن في استطاعتك أن تقود سيارة وقتما تستقلُّ إحداها. أنت أمريكي نموذجي برغم لون بشرتك الداكن، مثل لون بشرتي.

- لاتوجد صعوبة في قيادة السيارة. لاصعوبة بالمرَّة. فقيادة السيارة أسهلُ من قيادة حمار.

- هذا صحيح، كما أرىُ أنا تماماً. إذا ما اعتزمتُ شراء سيارة، هل تقودها لي؟.

قلت : - طبعاً .

قال :- ماهي أجرتك التي تريد؟.

- تعني أنك تريد أن تعطيني أجراً لقيادة السيارة؟

- طبعاً.

- حسناً، إنه كَرَمٌ زائدٌ منك، لكني لاأريد مالاً مقابل قيادة سيارة.

- بعض الرحلات قد تكون طويلة جداً.

قلت : - الرحلات الأطول هي الأفضل.

قال : - هل أنتَ متضايق؟.

- لقد ولدتُ في هذه البلدة القديمة الصغيرة.

- ألا تحبُّها؟.

قلت : - أحب الجبال والجداول والبحيرات الجبلية.

قال : - هل صعدتَ الجبال من قبل؟.

- ليس بعد، لكنني أنوي ارتقائها ذات يوم.

- أرجو ذلك.

- مانوع السيارة التي تقترح عليَّ شراها؟.

- مارأيك في سيارة (فورد)؟.

- أهي أفضل سيارة؟

قلت : - هل تبحث عن الأفضل؟

قال : - وهل يُفَضَّل عَدَمُ امتلاك الأفضل.

- لا أدري. لكن تُكَلِّفُ مالاً كثيراً.

- ما الأفضل؟.

قلت : - حسناً. بعض الناس يرون أن (الكاديلاك) هي الأفضل،

والبعض الآخر يُفَضِّل (الباكار). وكلاهما صائب في رأيه. وأنا لاأعرف أيهما الأفضل (الباكار) للسير في الطرق الرئيسية لكن (الكاديلاك) هي أيضاً كذلك.. وقد شاهدتُ كثيراً من سيارات الباكار الفاخرة تسير في الطريق الرئيسي.

قال: - كم يبلغ ثمن (الباكار)؟.

- حوالي ثلاثة آلاف دولار، وربما أكثر قليلاً.

- هل يمكننا الحصول على واحدة الآن؟.

قمتُ مِنْ على المقعد..

- اسمع ياسيد (قاطرة)، هل تريد حقاً شراء سيارة (باكار) الآن؟.

- أنت تعرف أن حيواني قد مات منذ دقائق معدودات.

- شاهدتُ الحادث. وربما يُلقونَ القبضَ عليك في أيِّ لحظة من الآن، لِتَرْكِكَ الحيوانَ في الشارع.

قال : - لايحق لهم القبضُ عليّ .

قلت :- سيقومون بذلك، طالما هناك قانون يُحَاسِبُ على تَرْكِ حمارٍ ميتٍ في الطريق.

- لا، لن يقوموا بذلك..

- وَلِمَ لا؟.

قال : - حسناً، إنهم لم يقوموا بذلك بعدما أُظْهِرُ لهم أوراقاً قليلة أحملها معي دائماً. أناسُ هذه البلدة يُقدّرون المالَ كثيراً، وأنا عندي مالٌ وفير.

فكرتُ .. علاوةً على ذلك، أعتقد أنه أحمق..

قلت : - من أين لك كلُّ هذا المال؟.

- لي أرضٌ في (أوكلاهوما).. حوالي خمسين ألف فدّان.

- كم يبلغ ثمنها؟.

قال : - لا، كلّها لاتساوي شيئاً، فيما عدا عشرين فدّاناً منها، فقد امتلكتُ، أنا وأخي، آبارَ نفطٍ في العشرين فداناً.

قلت :- كيف أمكنكم، يامعشر الأجيبويين، الاتجاه إلى (أوكلاهوما)؟، وأنا أعرف جيداً أن (الأجيبويين) يقطنون في الشمال حول البحيرات العظمى.

قال الهندي : - هذا صحيح، قد اعتدنا العيش حول البحيرات العظمى، لكن جدي كان جندياً يعمل في تمهيد الطرق، انتقل غرباً مع غيره.

- أوه، أعتقد أنهم لم يضايقوك بشأن الحمار الميت.

- إنهم لم يضايقوني في أيِّ شيء. فهذا غير مرغوب فيه، لأني أملك المال. والمال يجعلهم يعتقدون أنني أحمق. أنت تعرف أن معي مالاً. هل تعرف مكاناً استطيع أن أجد فيه إحدىٰ هذه السيارات الآن.؟

قلت : - إن وكالة بيع (الباكار) في (برودواي)، خلف المكتبة العامة.

- وهو كذلك، إذا لم تُمَانِع في أن تقود السيارة لي، فلنذهب لنشتري واحدةً بلونٍ جذّابٍ أحمر، إن كان لديهم سيارات حمر. في أيِّ مكانٍ تُفَضِّل أن تقود فيه في البداية؟.

قلت : - هل يعجبك الذهاب إلى (مندوتا)؟.

قال :- سأقوم بجولة، وأجعلك تصيد السمك. من أين نستطيع الحصول على أدوات صيدٍ لك؟.

قلت :- يميناً عند الركن عند محل (هومان).

وذهبنا إلى الركن حيث محل (هومان) واشترى لي الهندي أدوات لصيد السمك بسبعة وعشرين دولارا، ثم ذهبنا إلى وكالة بيع (الباكار) في (برودواي) لم يكن عندهم باكار حمراء، لكن هناك سيارة جذابة، ذات لون أخضر خفيف، بلون العشب الجديد. يرجع طرازها إلى عام1922. كانت من طراز سياحي رياضي رائع.

قال الهندي : - هل تستطيع قيادة هذه السيارة الكبيرة الفاخرة؟.

- قلت : - أستطيع قيادتها، بكلّ تأكيد.

عثرتْ علينا الشرطة في وكالة (الباكار)، وأرادتْ القبضَ على الهندي لتركه الحمارَ الميتَ في الشارع. فأطلعهم على الأوراق التي تتعلّق بهذا، فاعتذروا وانصرفوا، قالوا أنهم رفعوا الحيوان واعتذروا لأنهم أزعجوه بشأنه. قال : - لا ازعاج اطلاقاً.

والتفت إلى مدير وكالة (الباكار)، جيم لويس، الذي اعتاد أن يهرع لمقابلة رئيس البلدة كلما بدأت الانتخابات. قال : - سآخذ هذه السيارة.

قال جيم :- سأنهي الأوراق حالاً.

قال الهندي : - أية أوراق؟ إني سأدفع المبلغ فوراً.

قال جيم :- هل تقصد أنك تريد دفع ثلاثة آلاف ومائتين وسبعة عشر دولار وخمسة وستين سنتا، نقداً؟.

قال الهندي :- أجل. السيارة مُعَدّة للقيادة، أليس كذلك؟

قال جيم : - طبعاً. سأجعل الأولاد يمسحونها بالكامل، بقطعة قماش لينظفوها من التراب. سأجعلهم يُجَرِّبون المحرّك أيضا. ويملؤون الخزان بالبنزين. لن يستغرق هذا أكثر من عشر دقائق. تفضل أنت وادخل المكتب، وسأُنهي الاجراءات في الحال.

دخل جيم والهندي إلى مكتب جيم. وبعد حوالي ثلاث دقائق، جاء جيم ملتفتاً إليَّ وهو مصدوم. قال : - يا آرام. من هذا الشاب غريب الأطوار؟ أعتقدتُ أنه غشيم. اتصلت هاتفياً بجوني، غرب جنوبي الباسفيك، فأفادوا أن حساب البنك الذي يتعامل معه ينبغي تحويله من مكان ما في(أوكلاهوما). وأفادوا أن حسابه يتعدّى المليون دولار. اعتقدتُ أنه غشيم. هل تعرفه؟

- أخبرني أن أسمه (القاطرة38). وهذا ليس اسما.

قال جيم : - هذه ترجمة لاسم الهندي. نحن نريد اسمه بالكامل في العقد، هل تعرفه؟

قلت :- قد تحدثتُ معه كلَّ يوم منذ حضوره إلى البلدة بذلك الحمار الذي مات هذا الصباح، لكنني لم أحسب قطُّ أن لديه مالاً.

- إنه يقول أنك ستقود له السيارة. هل أنت متأكد أنك الشخص الكفء لقيادة سيارة كبيرة كهذه، ياابني؟

- تريّث قليلاً، يا أستاذ جيم لويس. لاتحاول أن تُضيّع عليَّ هذه الفرصة المتاحة. إني أستطيع قيادة هذه (الباكار) الكبيرة، مثل أيّ شخص آخر في البلدة.

- أنا لاأسعى لضياع شيءٍ منك. فقط لا أرغب أن تخرج من هنا فتدهس ستة أو سبعة أشخاص بسطاء، وربما تتحطم السيارة. اركب السيارة وسوف أمرّنك عليها. هل تعرف شيئاً عن ناقل الحركة؟

قلت :- لاأعرف شيئاً البتة حتى الآن، لكنني سأتعلم بسرعة.

قال جيم : - حسنا. دعني أساعدك.

ركبتُ السيارة وجلستُ إلى عجلة القيادة، وتبعني جيم.

قال:- من الآن فصاعداً، يابني، أرجو أن تعتبرني صديقاً يُعْطيك النصيحة باخلاص...أريد أن أشكركَ لأنك أتَحْتَ لي الفرصة لمقابلة هذا الرجل الهندي اللطيف.

قلت : - أخبرني أنه يُريد أفضلَ سيارة في السوق. وقد كنتُ مغرماً على الدوام بقيادة (الباكار)..والآن كيف أقودها؟.

- حسناً. فلنبدأ..

قال : - يا إلهي ... إن أقدامك لاتصل إلى الدوّاسات يا ابني.

- لاتعبأ بذلك . فقط أشرح لي كيف يعمل ناقل الحركة..

شرح جيم كلَّ شيء، بينما أنهى الأولادُ مَسْحَ ترابِ السيارة، واتجهوا إلى المحرك وملؤوا خزّان البنزين. عندما خرج الهندي وركب في المقعد الخلفي للسيارة، ألْحَحْتُ عليه كي يجلس في مكانٍ مناسب، أدرتُ المحرك.

قال الهندي لجيم لويس: - آرام يعرف كيف يقودها.

قال :- يعرف ذلك بالفطرة، وأنا أصدقه تماماً.

قال جيم : - لستَ في حاجة إلى القلق هنا بشأن آرام. إنه قادر على القيادة بطريقة صحيحة. وصاح : - افسحوا الطريق يا أولاد. دعوه يُحَدّد الاتجاه المناسب.

أدرتُ السيارة ببطء، وخرجتُ من المعرض السيارات بسرعة تبلغ نحو خمسين ميلاً في الساعة ، بينما أخذ جيم لويس يجري خلف السيارة وهو يصيح : - على مهلك ، يا ابني. لا تُسرع حتى تخرج إلى الطريق الرئيسي. إن السرعة المسموح بها في البلدة عشرون ميلاً في الساعة.

لم ينزعج الهندي اطلاقاً، رغم أني ابتعدتُ به كثيراً.

وأن كنتُ لم أفعل ذلك عن قصد. كلُّ ما هنالك أنني لم أَكُ على

دراية كافية بتشغيل السيارة. قال : - أنتَ قائد ممتاز، ياويلي. هذا ماتوقعته. فأنتَ أمريكي مولودٌ بالفِطْرَة لمثل ِهذه الحِيَل الميكانيكية.

قلت : - سنصل (مندوتا) خلال ساعة واحدة، هناك سوف تشاهد عملية صيدٍ كبيرة للسمك.

- كم تبعد (مِندوتا).؟.

- حوالي تسعين ميلاً.

قال الهندي : - ان التسعين ميلاً تستغرق أكثر من ساعة واحدة. لتكن ساعتين. دعنا نمرُّ على الكثير من المناطق الجذَّابة التي تشوقني رؤيتها بإمعان وَرَوِيَّة.

- حسناً، لكني في شوقٍ متزايدٍ للوصول إلى هناك، ومشاهدة السمك.

- حسناً، كما تريد . إجرِ بسرعة كما يحلو لك، لكني أقترح عليك أن تكون هناك فُسْحَةٌ من الوقت تقود خلالها السيارة ببطء شديد، حتى أتمكن من مشاهدة بعض المناظر الخلاَّبة. أشياءُ عديدةٌ تنقصني. ولا أتمكن حتىٰ من قراءة الاشارات.

قلت : - الآن، انا مستعد للتحرك ببطء وقتما تريد.

أصرَّ :- لا، فلنواصل السير بأقصىٰ سرعةٍ ممكنة.

على هذا المنوال، وصلنا (مِندوتا) خلال ساعة واحدة وسبع عشرة دقيقة. وكان ينبغي عليَّ أن أبحث عن فرصةٍ مواتيةٍ غير الوقت اللازم لقطع الامتداد الطويل للطريق السيء. قدتُ السيارة إلى اليمين في خطٍ موازٍ لحافة النهر. سألني الهندي إذا كان يمكنني النزول من المنحدر، كي يجلس في الخلاء ويراقبني وأنا أصيد السمك. لم أكُ أعرف كيف أهبط المنحدر، لكني هبطت واستغرق ذلك عشرين دقيقة.

واصلتُ الصيدَ لمدةٍ تقترب من الثلاث ساعات، ووقعتُ في النهر مرتين، وفي النهاية وقفتُ على أرضٍ صغيرة. قال الهندي:

- أنتَ لاتعرف مبادئ صيدِ السمك.

- ماالذي أخطأتُ فيه؟

قال : - كلَّ شيء. هل اصطدتَ سمكاً من قبل؟.

- لا ...

قال : - وأنا لا أعتقد ذلك.

قلت : - ماالذي أخطأتُ فيه؟.

- حسناً. لاشيء بالتحديد. كلُّ ما هنالك أنك تصيد السمك بنفس معدل السرعة تقريباً الذي تقود بهاسيارة.

- وهل هذا خطأ؟.

- ليس خطأ بالضبط لكن عليك أن تكون حريصاً على ألا تتكلم، وتواصل النزول إلى النهر دون أن تقع فيه.

قلت : - أنا لا أقع. ان السمك يشدني إلى الداخل. إنه يدفعني دفعة غريبة. وأيضاً، هذا العشب خادع جداً. ما مِنْ شيءٍ هنا يُمكن الامساك به.

وتمايلتُ في اتجاهٍ أكثرَ من الاتجاهِ الآخر قليلاً، ثم سألته إن كان يرغب في العودة إلى البيت. فقال إنهُ يُفَضِّل ذلك. إذا رغبتُ أنا أيضاً. ومن ثم، جمعتُ أدوات الصيد والسمكتين، ركبتُ السيارة، وقدتُها عائداً إلى البلدة.

قدتُ تلك (الباكار) الكبيرة من أجل هذا (الأجيبوي) الهندي (القاطرة38)، قُدْتُهَا لفترةٍ طويلةٍ أثناء إقامته بالبلدة، صيفاً. لقد أقام بالفندق طوال الوقت. حاولتُ أن أُعَلِّمَهُ قيادةَ السيارة، لكنه قال لي أنه

لايهتمُّ بذلك.. قدتُ تلك (الباكار) في كلِّ أرجاء وادي (سان جواكين) في ذلك الصيف، والهندي يجلس في المقعد الخلفي، وهو يمضغ ثماني أوتسع قطعٍ من اللُّبان. كان يطلب منّي أن أقود السيارة في أيِّ مكانٍ أجده مناسباً. لهذا، فقد كان المكان المناسب هو المكان الذي أصيد منه السمك، أو المكان الذي أصطاد منه الطير. أفهمني أنني لاأعرف شيئاً من مبادئ صيد السمك أو اصطياد الطيور، وان كان مسروراً بمحاولاتي. في الأوقات التي صحبته فيها لم يضحك أبداً، إلاَّ مرة واحدة. في تلك الحين، اصطدتُ أرنباً باثني عشر عياراً من بندقية رش. أحدثتُ فَرْقَعَةً هائلة، وقتلتُ غراباً. حاول هو أن يُعرِّفني بأن ذلك أمرٌ عادي. قال :- أنتَ تصيد أرنباً وتقتل غراباً. أنتَ أمريكي. انظر إلى الطريق الذي قطعته بهذه السيارة الكبيرة.

وفي أحد أيام نوفمبر من تلك السنة، حضر أخوه إلى البلدة، من (أوكلاهوما)، وفي اليوم التالي، عندما توجهتُ إلى الفندق، قالوا لي أنه رجع إلى (أوكلاهوما) مع أخيه.

قلت :- أين (الباكار)؟.

قال موظف الفندق : - انهما ركبا (الباكار).

- من قادها؟.

قال الموظف : - الهندي نفسه.

قلت : - كلاهما هندي. أيُّ الأخوين قادها؟.

- الشخص الذي كان يُقيم بالفندق.

قلت : - أمتأكد أنت؟.

قال الموظف : - أجل. فقد رأيته يتجه بالسيارة إلى الأمام ويقودها بعيداً. هذا كلُّ ماحدث.

- هل تقصد أن تُخبرني أنه عَرِفَ كيف يستخدم ناقلَ الحركة؟.

- يبدو أنه فعل ذلك . يبدو لي أنه سائق متمرس.

قلت : - شكراً.

وفي الطريق إلى البيت، تخلَّيتُ أنه أراد منِّي فقط أن أُصَدِّق أنه لايعرف القيادة، لهذا قمتُ بالقيادة كلَّ هذه الفترة وأنا أشعر بالثقة بنفسي.. مجرَّدُ شابٍ حضر إلى البلدة على ظهرِ حمار، دافعاً الحمار إلى الموت، أوإلى شيءٍ من هذا القبيل، حتى ينتهزها فرصة ليستغلَّ قروياً صغيراً أَعْيَاهُ الملل.. ذلك هو السبب الوحيد الذي اقتنعتُ به ، ولم أقتنع بالزَعْمِ القائل بأنه كان مخبولاً!!.



منذ عشرين عاماً، استقرّ في أذهان الأرمن القاطنين بوادي (سان جواكين)، أن فنّ الخطابة هو الفنُّ الأروعُ، والأرفعُ مقاماً، والأعظمُ شأناً، وهو الفنُّ الفريدُ القادرُ على التعبير. وبالاحصاءِ الفعلي، فإن نحو اثنين وتسعين بالمائة من أصحاب وادينا الكبير في كلّ أرجاء (فريسنو)، يعتقدون أن أيَّ شخص له القدرة على إلقاء خطبة يكون انساناً مثقفاً. لهذا أظنُّ أنه - بعد كلِّ تلك السنين- لكون أصحاب وادينا الكبير أنفسهم فاشلين في فن الخطابة، شديدي الخجل أمام الغرباء في هذا، شديدي الارتباك، شديدي الاعجاب بالخطباء البارزين الواقفين على مِنَصَّة، يُثَبِّتُونَ النظارات على أنوفهم، ناظرين إلى ساعاتهم، ويسعلون بِرِقَّة، ويبدأون بهدوء، رافعين أصواتهم إلى الدرجة التي تُحرِّكُ مشاعر المزارعين وتجعلهم يُقدِّرون ثقافة الخطيب. ويُحَدِّث المزارعون أنفسهم: "يالها من بلاغة ! يالها من براعة ! يالها من حكمة! ياله من صوت جَهِير!.

يتجمع المزارعون في الدور السفلي لكنيسة أو أخرى من الكنائس الثلاث، أو في القاعة العامة للبلدية، ويذرفون الدمع من عيونهم، نافخين

بأنوفهم، مانحين أموالاً كثيرة وقد غلبهم التأثر.

وفي بعض المناسبات، حيث يزيد المال لسببٍ ما، يحث المزارعون على التبرع بالمال، واقفين في القاعة العامة - مكرديج كسابيان - وزوجته أراكسي، وأبناؤه الثلاثة:كوركين وسيراك وتوماس- ينادون :

- خمسون سنتاً!..

ويجلسون وسط هتافٍ مُدوٍ كالرعد، وإلى هنا ينتهي جمع المال الذي يُمنح بهذه الطريقة المؤثرة من الكلام، وبالأسلوب التمثيلي البالغ التأثير، من الأسماء المألوفة بالبلدة: مكرديج، أراكسي، كوركين، سيراك، توماس.

وبهذه الطريقة من الحديث وإعطاء المال، يُزَاحِمُ المزارعون بعضهم بعضاً. وإذا لم يقف المزارع، ويُجَاهِر أمام الملأ كرجلٍ مِعْطَاء، فإنه يبدو حينئذ رفيقاً فقيراً !.. ولاينفع المال ولا العاطفة في إزالة الخوف وتبديد الرجفة في روحه!.. ومن جَرَّاء هذا التنافس، فإن المزارع غير القادر على التبرع بالمال (وإن كانت الظروف المحيطة تُقَدِّم المُبَرِّر)، يضطر للجلوس متوتراً خَجِلاً، عاماً بعد عام، وفي النهاية عندما تتحسن الأحوال ذات يوم، يقفز على قدميه، وهو يجول ببصره في القاعة العامة، صائحاً في حِدَّة:

- يالها من أيام بؤسٍ مرَّت على هؤلاء القوم من أبناء مدينة (ديكراناجرت)* الحبيبة - أخوة (بامبالونيان) الخمسة - خمسة وعشرون سنتاً!

ويمضي إلى البيت شامخَ الرأس، نابضَ القلب، الفقرُ في الأيام الغابرة، نعم. لكن كفى ... (ينظر الرجال الخمسة الضِخَام كلٌّ إلى الآخر، نظرةَ

---

*- ديكرانا جِرت : مدينة قديمة بناها الملك الأرمني ديران الكبير وجعلها عاصمة مملكته تقع على بعد ثلاثة كيلومترات من موقع مدينة ديار بكر.

افتخارٍ بالعائلة. ويدفع بعضهم بعضاً- بوازع من الحنان طبعاً- ذلك الحنانُ الوافدُ من الشرق الأدنى القريب، حنانٌ شرقيٌّ نابعٌ من البهجة التي لاتعدو أن تكون سوى امتهاناً في عيون القرويين أنفسهم).

على أيّ حال، فليس ثمّة مَدْعاةٌ لافتخار المزارع، إلا عندما يجد ابنه، ينهض ويُلْقي خطبة: في المدرسة، أو في الكنيسة، أو في الخلاء، أو في أيّ مكان.

يقول المزارع لأبيه البالغ من العمر ثمانين عاما :

– الولد ! اصغ إليه! إنه فاهان، ابني، حفيدك ذو الأحد عشر عاماً. إنه يتحدث عن أوروبا.

ويَطِيْبُ للجَدّ أن يهزَّ رأسه ويعجب لكلّ ما يحدث. فالولد، البالغ من العمر أحد عشر عاماً، يبدو رزيناً جداً، واسع الاطلاع، وهو يتحدث عن أوروبا. والرجل العجوز يعرف موقع أوروبا بالكاد، رغم أنه زار (هافر) بفرنسا، وهو في طريقه إلى أمريكا. ربما (هافر) تلك تكون يفروبا، أوربا، لكن، ما الذي جرىٰ في (هافر)؟ أو يمكن أن يحدث، فجأة، وبسبب توتر الولد وانفعاله! زمجر الرجل الطاعن في السن :- أخ ، إن هذا كلّه فوق إدراكي. لاأتذكر. إنها مدينة لطيفة مُطِلَّةٌ على البحر، حيث تمرُّ السفن.

النساء مبتهجات، تملأهن الدهشة والزهو بأنفسهن كأمهات. تنظر كلُّ واحدة للأخرىٰ، يتبادلن النظرات، وهن يُوْمِئْنَ ويَهْزُزْنَ رؤوسهن. وبعد لحظات من حديث الولد بالانجليزية، التي يَعْجَزْنَ عن فَهْمِهَا، تندفع منهن دموعٌ صامتة رقيقة، فالكلُّ مندهشات معجبات بالصغير(بيرجي).

وبالأمس، عجز طفل عن نُطْقِ كلمتين بالأرمنية، فليتكلم بالانجليزية فقط، على مِنَصَّة، يتكلم وهو يُحَرِّك ذراعيه، مشيراً بإصبعه، الآن إلى السقف، الآن

غربا، الآن جنوباً، الآن شمالاً، ويُشير من وقتٍ لآخر إلى قلبه..

في ظلِّ هذه الظروف، كان من الضروري للجاروغلانيين أن يظهر من بينهم خطيب، رغم أن شيخهم ينظر إلى الخطباء نظرته إلى مهرجين وغشاشين.

- عندما تسمع رجلاً يضع نظارة على وجهه، وهو يصيح من أعماق جوفه، فإني أؤكد لك أن ذلك الرجل إمَّا أحمق أو كذَّاب.

وكان الشيخ صبوراً دائماً، لدىٰ سماعه ما يُقال، فيما عدا ما يَتَّسِمُ بالمباشرة. وأراد أن يعرف ما يجهله، هذا كلُّ مايبغيه، ولايبتغي التحدث حباً في التحدث، اعتاد أن يتواجد في جميع الاجتماعات العامة، رغم أنهم عجزوا عن إحباطه. يراقب كلَّ متحدثٍ وَجهَهُ ليفطن إلى تَجَهُّمِ الشيخ، وعندما يرون شفتيه تتحركان بلعناتٍ صامتة، فإنهم يعمدون إلى تهدئة ثائرته، ويُغَيِّرون مجرىٰ الحديث، أو إذا ما تجاذبوا معه أطراف الحديث بطريقةٍ وِدِّية، وأصغوا إلى وجهة نظره في غبائهم! وحاولوا الوصول إلىٰ نتيجة معه، وذلك بالصياح بصوتٍ أعلىٰ من المألوف:

- نعلم أن هؤلاء يعيشون بين ظهرانينا، متهكمين علينا، هازئين بمجهوداتنا، حتى أنهم يعتبروننا مثل الحمقىٰ، إذا ما أسقطنا من حسابنا كبرياء العاطفة الزائف، ورغم كلِّ شيء، فتلك تجربتنا، خُضْنَاها، ونحملها معنا ونحن نتجه إلى المستقبل.

هنا، خبط الشيخ أبناءه على رؤوسهم، وهؤلاء خبطوا بدورهم أبناءهم على رؤوسهم ، وهؤلاء وَكَزَ كلُّ الآخرَ بكوعه، ونظرت النساء حولهن. ينهض الجاروغلانيون معاً، وهم يُعَدُّون سبعة وثلاثين أو ثمانية وثلاثين، وينصرفون، مُشَيِّعين بنظرات الشيخ وهو يقول في غَيْظٍ للمزارعين الفقراء:

- إنهم يحملون الصليب من جديد، فليمضوا.

رغم كلِّ ذلك، فإنني أرىٰ أنه من الضروري للجاروغلانيين أن يظهر من بينهم خطيب. إنها الطريقة المُثْلَىٰ. ويمكن لعضو ما مِنْ عشيرة الجاروغلانيين أن يجعل الخطابة مطلباً أساسياً، ويُوضح لكلِّ شخصٍ مقومات الخطابة الحقَّة، فعلاً، إذا ساندها حقٌّ واضح.

اتجه هذا الجاروغلاني إلى ابن عمي الصغير ديكران، وهو الابن الثاني لعمِّي زوراب، ويبلغ من العمر - عندما انتهت الحرب- تسع سنوات. يصغرني بسنة واحدة، وان كان حجمه صغيراً جدا، حتى أني اعتبرته كائناً نَكِرة.

من البداية، كان هذا الولد أحدالأولاد الذين يُبدون فهما كاملاً ذا قيمة، مُبَرَّءاً من الهوىٰ. أمَّا تلك الحالة السيئة المعيَّنة التي يبدو عليها الجاروغلانيون أمام الجميع، فمنشؤها مَاْلحِقَ بهم من انتقاد الآخرين لهم. وقد ظلُّوا - لعدَّة قرون- يعاملون الجميع بما يستقرُّ داخلهم من حكمة فطرية. ومِمَّا يُفَاخِرُ به الشيخ، أن أيَّ جاروغلاني أصيل يُمكنه أن يكتشف الغشَّاش من أول وهلة، بما يتمتع به من بديهة حاضرة بالفطرة، يتعامل بها مع الناس.

اعتاد الشيخ أن يقول:- عندما تتفحص رجلاً يختبئ وراء قناع وجهه، دعني أحدِّد لك خُبْثَ هذا الرجل. فهو إمَّا جاسوس أو نصَّاب. ومن ناحية أخرىٰ، إذا ما تفحصتَ رجلاً ذا نظرةٍ تُوْحِي لك بشيء، أيها الراهب، فإنني أخوك الحَذِر. وإنَّ ذلك الرجل يُخْفِي سكيناً في مكانٍ ما.

وبتعليمات من هذا القبيل، يكبر عليها الجاروغلانيون منذ لحظة الميلاد، مُتَنَبِّهِيْنَ بها إلىٰ حكمة الدنيا وعاداتها الغريبة.

كان الجاروغلاني الوحيد الذي لم ينجح في استيعاب ذلك، بأيِّ حالٍ من الأحوال، هو ابن عمي ديكران. كان يقرأ الكتب بإمعان. وهو من الفئة التي تَزْدَرِي الشيخَ بلا حدود، ما لم يقف على مدى التقدم الذي يُحققه قارئٌ على شاكلة طفلٍ لا يرغب في شيءٍ سوى أن يقرأ كتاباً؟ وبالنسبة لديكران، لم يَلْحَظ الشيخ تقدماً، بل على النقيض، فقد لاحظ انحرافاً مستمراً في فهمه للأمور. وفي النهاية عندما بلغ الولد الحادية عشرة من عمره، نمى إلى علم الشيخ أن ديكران أذكى تلميذ في مدرسة (لونج فيلو)، وأن المدرسين يفخرون به، متحدثاً لبقاً بارعاً.

عندما تناهت هذه الأخبار إلى الشيخ، عن طريق أم الولد، أدار الشيخ - الجالس على الأريكة بغرفة الاستقبال- رأسه إلى الحائط وإلى الأرض : - منتهى السوء... ياله من إهمال !! ماذا يأكل الولد؟.

قالت الأم : - السبب ... أنه أذكى ولد في المدرسة كلِّها.

اندفع الشيخ في القول : - عندما تسمعين أن ولداً في الحادية عشرة هو أذكى ولدٍ في مدرسة بها خمسمائة ولد، فلا تُلْقِي بالاً لهذا. بحق الله، فِيْمَ كان ذكاؤه؟ أليسَ في الحادية عشرة ؟ وما الذي بَرَعَ فيه ؟ من يرغب في طفل يُتْعِبُ نفسه بالشعور المتزايد بالأهمية ؟ أنتِ أمٌّ مسكينة، والواجب يُحَتِّمُ عليَّ أن أُصَارِحَكِ القول. أخرجي الولد الفقير من المنزل، واذهبي به إلى الحقول. دعيه يذهب للسباحة مع أقاربه. إن الصغير الفقير لايعرف حتى طريقة للضحك. وتجيئين إلى هنا، بعد الظهر، لتقولي لي أنه ذكي !، حسناً، فلتغربي عن وجهي.

وبرغم كلِّ هذا، فقد تقدَّم الولد بخطواتٍ منتظمة، ما شاء الله.. طاوياً صفحات الكتب، ليل نهار، في أيام الآحاد والعطلات وأوقات الترويح

عن النفس، حتى أصبح، أخيراً، متفوقاً في كلّ شيء، وصار من الطبيعي أن يُثَبِّتَ نظارة على وجهه، جعلتْ شكلَهُ أكثرَ بؤساً من الآخرين، لذا، ينعقد في كلِّ وقتٍ اجتماعٌ عائلي، يُدِيْرُ الشيخُ نظره، ويقول للولد وهو يئن:

- ياإلهي ، الفيلسوف ! حسناً أيها الولد، تعالَ هنا.

فينهض الولد ويقف أمام الشيخ. ويقول الشيخ:

- حسناً، أنتَ تقرأ الكتب. هذا رائع، أنتَ تبلغ الآن الحادية عشرة. شكراً لله على هذا. والآن، قل لي: ماذا تعرف؟ ماذا تعلمت؟.

يقول الولد : - لا أستطيع التحدث معك بالأرمنية.

يقول الشيخ : - ماشاء الله. حسناً، تحدَّث معي بالانكليزية.

كلُّ شيءٍ هنا يَنِمُّ عن رَوْعةٍ مذهلة. هذا ابن عمي الصغير، في الحادية عشرة، يبدأ التحدث فعلاً عن كلِّ الأشياء المدهشة التي استخرجها من الكتب. كانوا مُعْجَبِيْنَ به، فقد عرف كلَّ التواريخ، كلَّ الفصول، كلَّ الأسماء، كلَّ الأماكن، بنفس ترتيبها.

وكان ذلك مثارَ دهشةٍ وإعجاب. وفجأة، أوقف الشيخُ حديثَ الولد، صائحاً : - ما الذي تُشبهه أنت؟ أببغاءٌ أنت؟

وبدا لي أن الشيخ كان مُغْرَماً حتى بهذا الحضور الغريب بين الجاروغلانيين. إن قُرَّاء الكتب بُلَهاء - لهذا كانوا خطباء- وأياً كان القياس، فإن قارئ الكتب عندنا وخطيبنا في الوقت نفسه، لم يكن بأيِّ حال من الأحوال، مجرَّد قارئ كتبٍ وخطيب، كالطاحونة التي تدور. بل هو من طرازٍ فريدٍ بكلِّ المعايير. أَحَدُ هذه المعايير أنه أصغرُ من الآخرين الذين يتوهمون أنهم قد تعلَّموا أشياء كثيرة من الكتب، والمعيار الثاني أنه يتحدث بإفاضةٍ ووضوح أفضلَ من الآخرين.

لهذه الأسباب، فإن التفسير المقنع أن للولد رغبته الذاتية، وقدنال إعجاب الجميع كطالب علمٍ وخطيبٍ جاروغلاني، وأُعطِيَتْ له الفرصة ليُشْغِلَ وقته ويُطَوِّرَ أيَّ فكرة تطرأ له ويرتاح لها.

وفي عام 1920، أعلنت مدرسة(لونج فيلو) برنامج المساء المكوَّن من :

(1) غناء نادي جليه.

(2) تمثيل يوليوس قيصر.

(3) حديث للخطيب الجاروغلاني، موضوعه:

(هل هناك فائدة من الحرب العالمية؟).

وجلس الجاروغلانيون أنفسهم في الوقت المحدد بقاعة المدرسة، يُصْغُونَ للغناء الحزين، ويشاهدون التمثيل الممتع ليوليوس قيصر، ثم أنصتوا للخطيب الجاروغلاني، الوحيد، ديكران، الابن الثاني لزوهراب.

كان الحديث متقطعاً: مثيراً للعواطف، جيِّدَ النُّطق، مستنيراً، قويَّ الحجَّة - وأفادت نهايته بأن الحرب العالمية يجب ألا تكون قتالاً بلا هدف، وأن للديمقراطية دوراً في إنقاذ البشرية. وكان كلُّ فردٍ في القاعة مرعوباً، يصفق في حماسٍ استحساناً للحديث.. وان كان حقاً أكثر ممَّا هو متوقع، أعني أكثر ممَّا يتوقعه الشيخ.. وسط التصفيق المدوِّي، انفجر الشيخ ضاحكاً. ألقىٰ ديكران الحديث بطريقة جيدة، على الأقل، كان أفضلَ من غيره من الأحاديث الرديئة. وهي فرصة متاحة للتفاخر في هذا المجال.

في البيت، مساءً، نادىٰ الشيخ علىٰ الولد ليحضر إليه وقال:

- استمعتُ لحديثك، حديثٌ مُتْقَن. أعرف أنك تكلمتَ عن حربٍ قُتل فيها عدة ملايين. ومن المهم أن أُعَرِّفَكَ أنني مسرور بك إلىٰ حدٍ ما. إن فصاحةً رائعةً كهذه جديرةٌ بأن تَصْدُرَ من شفتي صبيٍ في الحادية

عشرة، يَثِقُ بِمَا يقول. ونظراً لِكِبَرِ سنِّي، يجب أن أُخبرك. بأن شدَّة الخوف من تلك الملاحظة، فوق طاقةِ احتمالي إلى حدٍ ما. استمر في بحثكَ عن الدنيا من خلال الكتب، وإني لمتأكد، إذا كنت دؤوباً، وتتحمَّل عيناك هذه القراءة كلَّها، فإنك بمرور السنين حتى السابعة والستين ستعرف مدى الغَبَاء في التمسُّك بتلك الملاحظة، بمثلِ تلك البراءة التي تَنْطِقُ بها الليلة، بمثلٍ هذا التدفق السَلِس لمخارجِ ألفاظِ الإنجليزية. على أيِّ حال، إني فخور بك مثل افتخاري بأيِّ فردٍ آخرَ من أفراد العشيرة. يمكنك الانصراف الآن. أريد أن أنام. فلستُ في الحادية عشرة من العمر، إني أبلغ السابعة والستين.

نهض كلُّ فردٍ وانصرف، إلا أنا. مكثتُ لفترة إلى أن رأيتُ الشيخ وهو يخلعُ حذاءه وسمعتُ تنهيدته: - يالَهُم من أطفالٍ مدهشين متهوّرين، في هذه الدنيا المدهشة المتهوّرة!!.

المؤلف في سطور

*** - وليم ساروريان...**

- وُلِدَ في مدينة (فريستو) بولاية كاليفورنيا عام 1908.
- هاجر أبواه من أرمينيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية قُبَيْلَ ميلاده بفترة قصيرة.
- توفي أبوه وهو في الثانية من عمره. فأُلْحِقَ بمؤسسةٍ للأيتام، فمكث فيها خمس سنوات.
- اضطرت أمه للعمل كي تُدَبِّرَ نفقات معيشته هو وأخوته.
- أُلْحِقَ بالمدرسة حتى سن الخامسة عشرة.
- في صباه مارس مهناً عديدة كبيع الصحف وجَنِي العنب ثم عُيِّنَ موزعاً للبرقيات... مارس القراءة منذ الصغر، فثقَّف نفسه بنفسه، مِمَّا هيَّأ له العمل في الصحافة.
- صدرت أول مجموعة قصصية له عام 1934 : (الشاب الجَسُور اللاعب على الأرجوحة.)

* من مؤلفاته القصصية :

- الأطفال الصغار (1937)
- ياحب .... هاكَ قُبّعَتِي (1938).
- السـلام .. شيء رائع (1938).
- اسمي آرام (1939)

* من مؤلفاته المسرحية:

- قلبي في الأعالي (1939).
- الناس الحلوين (1941).
- رازل دازل (1941).

* من مؤلفاته الروائية:

- الملهاة الإنسانية (1943).
- مغامرات ويزلي جاكسون (1946).
- روك وإجرام (1950).
- أمي..أحبــك (1956).
- أبــي... أنت أحمق (1957).
- هنا يأتي ، هناك يذهب، وأنت تعرف من يكون 1961.
- مُنِحَ جائزة (بوليتزر) عن مسرحية (أيام حياتك) ضمن مجموعة المسرحيات (قلبي في الأعالي). لكنه رفض استلام الجائزة.
- توفي عام 1981.

المترجم في سطور

*- حسني سيد لبيب.

- ولد في 18 نوفمبر عام 1942 ببولاق بالقاهرة.
- عضو اتحاد الكتّاب بمصر.
- عضو رابطة الأدب الحديث.
- عضو جمعية أنصار حقوق الإنسان بمصر.

* - صدرت له الكتب التالية:

- باقة حب: دراسة أدبية - القاهرة 1977.
- حياة جديدة: قصص - الشرقية 1981.
- أحدثكم عن نفسي: قصص - دمشق 1985.
- طائرات ورقية: قصص - القاهرة 1992.
- مختارات من قصص ساروبان: جزآن - دار الصداقة، سورية، حلب - 1994.

*- قيد الطبع:

- الرقص على الطين: قصص، عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.
- كلمات حب في الدفتر: قصص، عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

الفهرس

ابن عمي ديكران / وليم سارويان ؛ ترجمة حسني
سيد لبيب. ـ حلب ؛ دار الصداقة ، ١٩٩٤ . ـ
١٢٠ ص ؛ ٢٠ سم . ـ (مختارات قصصية ؛ ٢) .

١ ـ ٨٢٣ أ م س ا ر ١ و ٢   ٢ ـ العنوان
٣ ـ سارويان   ٤ ـ لبيب
٥ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

ع ـ ١٠٦٧ / ١٠ / ١٩٩٤